جامعة مولاي إسماعيل
UNIVERSITÉ MOULAY ISMAÏL

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
FACULTÉ DES LETTRES ET DES SCIENCES HUMAINES

شعبة الدراسات الإسلامية

الفصل الرابع

مادة التفسيـــــر

ذ. عبد الرحمن قشيش

الموسم الجامعي: 1442/1441هـ – 2021/2020

فهرس الموضوعات

أولا: شرف علم التفسير وفضله والحاجة إليه

ثانيا: مفهوم التفسير والتأويل

ثالثا: مراحل علم التفسير

رابعا: مصادر علم التفسير

خامسا: نماذج من الهدى المنهاجي

أولا:

شرف علم التفسير وفضله والحاجة إليه

مما لا ريب فيه أن تفسير القرآن الكريم هو أعظم الصناعات شأنا وأرفع العلوم منزلة، وأجل المعارف خطرا، سواء من حيث موضوعه الذي هو كلام الله تبارك وتعالى وهو أجل الكلام وأصدقه، أو من حيث غرضه، وهو التمسك بتعاليم القرآن الكريم ومبادئه السامية وتحكيمها في حياة الأفراد والجماعات، لتحقيق مصالح العباد وسعادتهم في الدارين، أو من حيث الحاجة إليه، ذلك لأن العمل بأحكام القرآن ونظمه ومبادئه لا يتحقق إلا عن طريق الفهم والتدبر لما تدل عليه آياته الكريمة علاوة على كونه –أي القرآن- مصدرا ضروريا لمختلف العلوم الشرعية والدينية.

يقول الراغب الأصفهاني (ت 502هـ):"أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن وتأويله، وذلك أن الصناعات الحقيقية إنما تشرف بأحد ثلاثة أشياء: "إما بشرف موضوعاتها، وهي المعمول فيها، نحو أن يقال: الصياغة أشرف من الدباغة لأن موضوعها – وهو الذهب والفضة- أشرف من جلد الميتة- الذي هو موضوع الدباغة وإما بشرف صورها: نحو أن يقال: طبع السيوف أشرف من طبع القيود... وإما بشرف أغراضها وكمالها، كصناعة الطب- التي غرضها إفادة الصحة- فإنها أشرف من الكناسة- التي غرضها تنظيف المستراح، فإذا ثبت ذلك، فصناعة التفسير قد حصل لها الشرف من الجهات الثلاث، وهو أن موضوع المفسر كلام الله تعالى: الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضله.

وصورة فعله: إظهار خفيات ما أودعه منزله من أسراره {ليتدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب}، وغرضه: التمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا فناء لها. ولهذا عظم الله محله بقوله: ﴿ يُؤتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ ٱلأَلْبَابِ﴾ قيل: هو تفسير القرآن"[1]

وإذا عرف ذلك فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث، أما من جهة الموضوع فلان موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، فيه

[1] - تفسير الراغب الأصفهاني "لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 502هـ)، ج1، ص36، الطبعة الأولى، 1420هـ 1999م.

نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. وأما من جهة الغرض فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى. وأما من جهة شدة الحاجة فلأن كل كمال ديني أو دنيوي، عاجل أو آجل مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله.

فالتفسير بهذا الاعتبار هو أجمع العلوم وأشملها فلا نكاد نجد علما من العلوم الإسلامية إلا وفي التفسير طرف منه غير يسير، لذا فإن أي محاولة يقصد بها النيل منه، وأي انحراف به عن النهج السوي، وأي شبهة تثار حوله لتحدث صدعا أو ثغرة فيه، إن أي شيء من ذلك كله سوف يكون له انعكاس خطير لا على التفسير وحده وإنما على تراثنا الإسلامي كله.

وقد دلنا الله سبحانه وتعالى على أهمية هذا العلم وشرفه وفضله في عدة مناسبات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿ يُوتِي ٱلْحِكْمَةَ مَنْ يَّشَآءُۚ وَمَنْ يُّوتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ اوتِيَ خَيْراً كَثِيراًۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ اُوْلُواْ ٱلاَلْبَبِ ﴾[1]. وقال ابن عباس:" يعني المعرفة بالقرآن، ناسخة، ومنسوخة، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله"[2] وفي رواية أخرى عنه قال: "يؤتي الحكمة" يعني تفسير القرآن فإنه قد قرأه البر والفاجر"[3]، وعن أبي الدرداء قال: "يؤتي الحكمة "أي في قراءة القرآن والفكرة فيه"[4] وروي مثله عن مجاهد وأبي العالية وقتادة.

[1] سورة البقرة، الآية 269.

[2] انظر تفسير الطبري "جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري (ت 310هـ).

[3] انظر "تفسير القرآن العظيم"، لأبي الفداء ابن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، (ت774 هـ).

[4] انظر كتاب "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" لجلال الدين السيوطي (ت911هـ).

وقد قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [1] أي العارفون بالقرآن وأحواله، المدركون لمعانيه وأحكامه، المتدبرون لأمثاله وقصصه، المعتبرون بمواعظه وحكمه، المتبصرون بأهدافه ومقاصده.

فعن عمرو بن مرة قال: "ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنتني لأني سمعت الله يقول ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾. ومما يؤكد هذه الأهمية أيضا عناية المسلمين البالغة بالقرآن الكريم وحرصهم الشديد على فهم مراد الله تعالى من كل آية لتحصيل ما ورد فيها من علم وعمل. أخرج ابن الأنباري عن أبي بكر الصديق ﷺ قال: "لأن أعرب آية من القرآن أحب إلي من أن أحفظ آية"[2]، واخرج عبد الله بن بريدة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: "لو أني إذا سافرت أربعين ليلة أعربت آية من كتاب الله لفعلت"، وأخرج من طريق الشعبي قال: قال عمر ﷺ: "من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد"[3].

قال الإمام السيوطي (ت911هـ) "معنى هذه الآثار عندي إرادة البيان والتفسير لأن إطلاق الإعراب على الحكم النحوي اصطلاح حادث ولأنه كان في سليقتهم لا يحتاجون إلى تعلمه"[4].

وإذا كانت أهمية هذا العلم تزداد بقدر حاجتنا إلى القرآن الكريم فإن هذه الحاجة تشتد وتتعاظم كلما تقدم بنا الزمن وبعد بنا العهد عن عصر النبوة، نظرا لما تفرزه مستجدات الحياة من نزاول وأحداث تستلزم منا البحث في القرآن عن الحلول والضوابط المناسبة لها،

---

[1] سورة العنكبوت، الآية 43..

[2] تفسير القرآن من الجامع لابن وهب "لأبي محمد عبد الله المصري القرشي"، (ت197هـ)، ج3، ص.43، الطبعة الأولى، 2003م، عدد الأجزاء3.

[3] الموسوعة القرآنية "لإبراهيم بن إسماعيل الأبياري"، (ت1414هـ)، ج9، ص.9، الناشر: مؤسسة سجل العرب، الطبعة 1405هـ.

[4] الإتقان في علوم القرآن"، لأبي بكر جلال الدين السيوطي، (ت911هـ)، ج4، ص.198، الطبعة 1394هـ/1974م، عدد الأجزاء4.

وهو أمر لا يتيسر إلا عن طريق الفهم العميق والتفسير الصحيح لنصوص الكتاب ومراعاة أبعادها ومقاصدها العامة. يقول الإمام السيوطي في هذا الصدد: "إن القرآن إنما نزل بلسان عربي في زمن أفصح العرب وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه أما دقائق باطنه فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر مع سؤالهم النبي ﷺ في الأكثر... ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة العربية بغير تعلم فنحن أشد الناس إلى التفسير ومعلوم أن تفسيره بعضه يكون من قبل بسط الألفاظ الوجيزة وكشف معانيها وبعضه من قبل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض"[1].

فالحاجة إلى القرآن إذا حاجة كل زمان ومكان لأن حياة البشر سواء كانوا أفرادا أو جماعات لا يمكن أن تقوم على أسس سليمة إلا إذا استرشدت بتعاليم القرآن الكريم ونظمه الحكيمة التي روعيت فيها مصالح العباد وسعادتهم في الدارين.

والقرآن بحكم كونه خاتم الرسالات السماوية تتسع نصوصه بالضرورة لكل حاجاتنا ومصالحنا، مهما اختلفت الظروف وتنوعت البيئات وتباعد الزمن.

وإذا كان علم التفسير هو مفتاح هذه النصوص الكاشف عما تزخر به من ذخائر وكنوز فلا ريب أن حاجتنا إليه ضرورية للغاية، لذا ينبغي الاهتمام به والعمل على تطوير آلياته ومناهجه ليكون في مستوى طموحاتنا العلمية والحضارية.

إن الألفاظ في القرآن الكريم لم تبق على معناها اللغوي الأصلي –فلا يوجد لفظ ظل كما كانت تستعمله العرب في المدلول الداخلي له ضمن النسق المفهومي القرآني الكامل، فاللفظ قد تكون دلالته عادية خارج القرآن –لكنه في القرآن مجلل بجلال الله عز وجل فوضعه فيه غير وضعه في الكلام العادي، وهذه الحقيقة ينبغي أن تكون دائما منطلقا في النظر إلى أي لفظ من ألفاظ القرآن بحيث يجب أن تبحث له عن خصوصيته، وذلك لأنه من كلام رب العالمين وداخل ضمن نسق مفهومي عام... في رؤية متميزة) بلغة اليوم

[1] الإتقان في علوم القرآن"، لأبي بكر جلال الدين السيوطي، (ت911هـ)، ج4، ص.196.

وأجزاؤها المكونة لها متميزة أيضا، كل على قدر موقعه في النسق، فهناك ألفاظ تحتل مواقع كبيرة في هذا القرآن كلفظ الإيمان ولفظ الدين، ولكن هناك ألفاظ يظهر أنها عادية وما هي بعادية إذا تتبعت في الاستعمال القرآني كله أولا، ثم بحث ثانيا عن موقعها في النسق المفهومي للقرآن الكريم، وعن علاقتها الدلالية داخل القرآن فستجد لها وجودا يخالف الوجود الذي لها خارج القرآن.

إن آيات القرآن وكلماته مفصلة على علم الله تعالى الذي أحاط بكل شيء علما، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿ أَلٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿حمٓ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [3]

إن ألفاظ القرآن الكريم وكلماته ليست مجرد أصوات لغوية عربية، وليست مقيدة برموزها ودلالاتها التي جرى بها الاستعمال العربي، بل هي كلمات ودلالات تحمل في طياتها صفات الألوهية، ولذلك فتفسير هذه الألفاظ يجب أن لا يوقف عند معانيها التي عرفت في اللسان العربي وفي معاجمه، صحيح أن القرآن العظيم نزل بلغة العرب لكن ألفاظه وكلماته وأساليبه أجل وأعظم من أساليبهم، ولا يجوز أن تفسر بمجرد ما كانت تدل عليه في كلمهم، وقد عاب ابن تيمية (ت 728هـ) رحمه الله هذا الضرب من التفسير الذي حدث بعد تفسير الصحابة وأوضح أن الخطأ فيه جاء من تفسير ألفاظ القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده من كان من الناطقين بلغة العرب من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن وإلى المنزل عليه وإلى المخاطب به، -نعم يجوز للمفسر أن يعود إلى كلام العرب ليتعرف على أصل استعمال اللفظ القرآني المراد تفسيره في اللغة العربية- لكن ينبغي أن لا يقف عند ذلك المعنى، بل يجب أن ينظر في الاستعمال القرآني لذلك اللفظ في السور المختلفة، ثم ينظر في سياق الكلام في كل سورة ويراعي ما يقتضيه ذلك السياق، ثم يراعي ما يليق بمقام

[1] سورة الأعراف، الآية 52.
[2] سورة هود، الآية1.
[3] سورة فصلت، الآية 1-2.

الألوهية وما يجب في حقها وما لا يجوز ويراعي أيضا مقتضى حال المخاطب وأسباب نزول الآيات.

إن اللفظة المختارة من لدنه سبحانه ضاربة بجذورها في الإحاطة نظرا للنظم الذي أخضعها له سبحانه، فالعمد إليها لتبيانها دون مراعاة هذا بحسب الأفق المعرفي للإنسان القاصر يظلمها إذ "البشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن قط محيطا" كما يقول ابن عطية (ت542هـ) في "المحور الوجيز في تفسير الكتاب العزيز".

إن الاستخدام الإلهي للمفردة اللغوية يرتقي بدلالتها إلى مستوى المصطلح المحكم الدقيق خلافا للكسب البلاغي البشري عامة.

إن الفرق بين كلام الله وكلام البشر أكبر من الفرق بين الإنسان والتماثيل الطينية، فكما أن إرادة الله ومشيئته حين توجهتا إلى اللطين صيرتاه إنسانا ناطقا مريدا فاعلا، فكذلك حين توجهنا إلى الكلام صيرتاه قرآنا مرتلا منيرا هاديا.

ولأهمية التعرف على معاني الألفاظ القرآنية، وضع العلماء تفسير ألفاظ القرآن في المرتبة الأولى من علومه، قال الراغب الأصفهاني (ت502هـ) في مقدمة كتابه "المفردات في غريب القرآن":"إن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللبن في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه، وليس ذلك نافعا في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، -تمخض القرآن للهدى وتخصصه في الهداية.

وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم"[1].

وقال السمين الحلبي: "أما بعد فإن علوم القرآن جمة ومعرفتها مؤكدة مهمة ومن جملتها المحتاج إليها والمعول في فهمه عليها مدلولات ألفاظه الشريفة ومعرفة معانيه اللطيفة إذ بذلك يرتقي إلى معرفة أحكامه وبين حلاله وحرامه ومناحي أقواله وإثارة مواضعه وأمثاله –فإنه يدل بأكثر من لغة- لغة العرب المحتوية على كل فن من العجب(...)"[2]

وقال الشيخ محمد عبده (ت1323هـ): "للتفسير مراتب – فأما المرتبة العليا فهي لا تتم إلا بأمور: (أحدها): فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة، غير مكتف بقول فلان وفهم فلان، فإن كثيرا من الألفاظ كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد... يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة؛ ليفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب، فكثيرا ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الأولى، فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله، والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه، فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ "الهداية".. وغيره، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه، وقد قالوا: إن القرآن يفسر بعضه ببعض، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب.. بجملته"[3].

والمستفاد من هذه النصوص هو تبين ميزة ألفاظ القرآن وقيمتها في كل تفسير وفي كل فهم – فمصطلحات أي علم من العلوم هي المدخل الطبيعي إلى مضمونه ومحتواه والباب

---

[1] المفردات في غريب القرآن، ج1، ص.44-45. المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية، دمشق –بيروت، الطبعة الأولى 1412م.

[2] نقلا عن مجلة البيان، العدد 124. ذو الحجة 1418هـ (عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، 37/1، تحقيق وتعليق الدكتور محمد التنوجي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1414هـ -1993م.

[3] أنظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، للشيخ محمد رشيد رضا (ت 1354هـ)، ج1، ص20، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1990م، عدد الأجزاء، 12 جزء.

الموصل إلى مسائله وقضاياه وهي المفاتيح لمغاليقه، فبتحقيق المصطلحات وضبطها وتحصيل معانيها يدرك العلم ويحصل، وبغير ذلك يتيه طالب العلم وتضطرب عليه المصادر والموارد، وذلك لأن مضامين العلم ومسائله الكلية والجزئية مختزلة في مصطلحاته ومودعة فيها، وهي بالنسبة له كالظرف مع المظروف وإدراك الظرف يؤذن بطبيعة المظروف.

ثانيا:

مفهوم التفسير والتأويل

المبحث الأول: مفهوم التفسير والتأويل

البحث في مفهوم التفسير والتأويل ليس من قبيل الإعادة لما كتب في الموضوع؛ إذ لا يكاد يخلو كتاب من كتب علوم القرآن والتفسير من التعرض للمفهومين ولما بينهما من تباين أو تقارب، ولكنا مع ذلك نثير الموضوع؛ لأنه لبنة من البناء فهذا مكانه.

1) مفهوم التفسير لغة واصطلاحا

1- التفسير لغة:

التفسير لغة: الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى ﴿وَلاَ يَاتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾[1]. أي بيانا وتفصيلا، وهو مأخوذ من الفسر وهو الإبانة والكشف، قال في القاموس: "الفسر الإبانة وكشف المغطى كالتفسير"[2]. وقال في لسان العرب: "الفسر البيان، فسر الشيء يفسره بالكسر، ويفسره بالضم فسرا. وفسره أبانه، والتفسير مثله... ثم قال: الفسر كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل..."[3]

- وقد اختلف في مادة اشتقاقه على أقوال:

- **الأول:** أنه مأخوذ من التفسرة وهو اختيار الزركشي قال: "وأصله في اللغة من التفسرة وهي القليل من الماء الذي ينظر فيه الأطباء، فكما أن الطبيب بالنظر فيه يكشف عن علة المريض فكذلك المفسر يكشف عن شأن الآية وقصصها ومعناها والسبب الذي أنزلت فيه".

---

[1] سورة الفرقان، الآية 33.

[2] القاموس، (فسر).

[3] اللسان (فسر).

- **الثاني:** إنه مأخوذ من الفسر وإن كان بنفس المعنى أي نظر الطبيب، قال ابن فارس: "وأما اشتقاقه فمن الفسر" ثم ساق بسنده إلى الخليل قال: "الفسر البيان واشتقاقه من فسر الطبيب: إذا نظر إليه ويقال لذلك: التفسرة أيضا"[1]

وقال في معجم المقاييس: "والفسر والتفسرة: نظر الطبيب إلى الماء وحكمه فيه"[2]. ونقل الأزهري عن الليث: "وكل شيء يعرف به تعرف تفسير الشيء ومعناه فهو تفسرته"[3]

- **الثالث:** أنه مأخوذ من قول العرب: فسرت الفرس، فسرته أي أجريته وأعديته إذا كان به حصر ليستطلق، قال ابن الأنباري: "قول العرب: فسرت الدابة وفسرتها إذا ركضتها محصورة لينطلق حصرها"[4]، وقال أبو حيان: "ويطلق التفسير أيضا على التعرية للانطلاق، قال ثعلب: تقول فسرت الفرس: عريته لينطلق في حصره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريده منه من الجري"[5]

- **الرابع:** أنه مأخوذ من مقلوب لفظه تقول العرب سفرت المرأة إذا كشفت قناعها عن وجهها، وسفرت البيت كنسته، ومنه قيل للسفر سفر، لأنه يسفر عن أخلاق الرجال، قال الزركشي: "وقال آخرون: هو مقلوب من سفر ومعناه أيضا الكشف"[6]. وقال الراغب: "الفسر والسفر يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما لكن جعل الفسر لإظهار المعنى المعقول ومنه قيل لما ينبئ عنه البول تفسرة، وجعل السفر لإبراز الأعيان للأبصار، فقيل: سفرت المرأة عن وجهها وأسفر الصبح"[7]، وقد ضعف هذا القول الأوسي بقوله:" والقول بأنه مقلوب السفر مما لا يسفر له وجه"[8].

---

[1] الصاحبي، ص.314.
[2] معجم مقاييس اللغة: (فسر)، وانظر مفردات (فسر)، واللسان (فسر).
[3] تهذيب اللغة (فسر)، واللسان (فسر)، والعين (فسر).
[4] البرهان في علوم القرآن (147/2).
[5] البحر المحيط (13/1).
[6] البرهان في علوم القرآن (147/2).
[7] البرهان في علوم القرآن (147/2).
[8] روح المعاني (4/1).

2) التفسير في الاصطلاح

إن التفسير كان أول ما اشتغل بع علماء الإسلام قبل الاشتغال بتدوين بقية العلوم، وفيه كثرت مناظراتهم إذ يحصل من مزاولته والدربة فيه لصاحبه ملكة يدرك بها أن أساليب القرآن ودقائق نظمه، فكان بذلك مفيدا علوما كلية لها مزيد اختصاص بالقرآن المجيد، فمن أجل ذلك سمي علما"[1].

- أما تعاريف العلماء للتفسير فقد تعددت وتنوعت ونعرض في ما يلي لأهمها:

- قال أبو حيان: "التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات ذلك"[2]

- وقال الزركشي: "هو علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها والإشارات[3] النازلة فيها ثم ترتيب مكيها ومدنيها ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها وخاصها وعامها ومطلقها ومقيدها ومجملها ومفسرها، وزاد فيها قوم فقالوا: علم حلالها وحرامها ووعدها ووعيدها وأمرها ونهيها وعبرها وأمثالها"[4].

- وللزركشي تعريف آخر للتفسير هو أقرب إلى المعنى الذي استقر عليه مفهوم التفسير، يقول فيه: "التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه"[5]

- وعرف محمد الطاهر ابن عاشور التفسير بقوله: "هو اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منه باختصار أو توسع".[6]

---

[1] التحرير والتنوير (12/1-13).

[2] البحر المحيط (13/1-14).

[3] في الإتقان (1191/2)، "الأسباب" بدلا من "الإشارات" ولعله الصواب.

[4] البرهان في علوم القرآن (148/2)، الإتقان (1191/2).

[5] البرهان في علوم القرآن (12/1).

[6] التحرير والتنوير (11/1).

3) مفهوم التأويل لغة واصطلاحا

1- التأويل لغة

التأويل في اللغة مأخوذ من الأول وهو الرجوع، قال في القاموس: "آل إليه أولا ومآلا: رجع، وآل عنه: ارتد... وأول الكلام تأويلا وتأوله: دبره وقدره وفسره، والتأويل عبارة الرؤيا".[1]

وقال الجرجاني في التعريفات: "التأويل في الأصل الترجيع"[2]

وقال في لسان العرب: الأول: الرجوع، آل الشيء يؤول أولا ومآلا رجع، وأول الشيء رجّعه، وآلت عن الشيء ارتددت"[3]

2- التأويل في القرآن

بخلاف التفسير الذي ورد مرة واحدة في القرآن الكريم، نجد لفظ التأويل قد ورد في كثير من آياته على معان عديدة؛ لذلك استحسنت تتبع هذه المعاني وعرضها وهي على الشكل التالي:

1. ﴿هُوَ ٱلذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلاَّ ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ ٱلأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: الآية7]، فهو في هذه الآية بمعنى التفسير والتعيين.

---

[1] القاموس (آل).

[2] التعريفات باب التاء.

[3] اللسان (آل).

2. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾.[النساء: الآية59]، فهو في هذه الآية بمعنى العاقبة والمصير.

3. ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [الأعراف: الآية 53]، فهو في هذه الآية بمعنى وقوع المخبر به.

4. ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: الآية39]، فهو في هذه الآية بنفس المعنى السابق في الآية قبلها.

5. ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: الآية6]، فهو في هذه الآية وفي باقي الآيات من سورة يوسف المراد به نفس مدلول الرؤيا.

6. ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ﴾ [يوسف: الآية21].

7. ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: الآية36].

8. ﴿ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾ [يوسف: الآية37].

9. ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٖۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف: الآية44].

10.﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: الآية 45].

11.﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ [يوسف: الآية100].

12. ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ [يوسف: الآية 101].

13.﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلٗا﴾ [الإسراء: الآية35].

14.﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرٗا﴾ [الكهف: الآية78].

15.﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرٗا﴾ [الكهف: الآية82].

3- التأويل اصطلاحا

قال أبو القاسم بن حبيب النيسابوري والبغوي والكواشي وغيرهم: "التأويل: صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وبعدها تحتمله الآية، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط، قالوا: وهذا غير محظور على العلماء بالتفسير، وقد رخص فيه أهل العلم".[1]

والملاحظ أن هذا التعريف يتضمن قواعد أكثر مما يتضمن تعريفا فيمكن إعادة صياغته على الشكل التالي:

[1] البرهان في علوم القرآن (150/2)، الإتقان (1191/2).

التأويل: صرف الآية إلى معنى من طريق الاستنباط، وذلك غير محظور على العلماء بشروط:

1. أن يكون هذا المعنى المستنبط موافقا لما قبله وما بعده.
2. أن يكون معنى تحتمله الآية.
3. أن يكون غير مخالف للكتاب والسنة.

وأغلب التعاريف الأخرى التي قدمت للتأويل جاءت مقارنة له مع التفسير.

4)بين التفسير والتأويل

انقسم العلماء بخصوص هذه المسألة إلى رأيين أساسيين:

أولا: القائلون بعدم التمييز بين التفسير والتأويل:

يذهب فريق من العلماء إلى أنه لا فرق بين التفسير والتأويل وأنهما بمعنى واحد، وهو الذي ينسبه السيوطي إلى أبي عبيدة وطائفة قال: "واختلف في التفسير والتأويل فقال أبو عبيدة وطائفة: هما بمعنى"[1]

وممن نفى الفرق بين التفسير والتأويل الفيروز أبادي في أحد قوليه قال: "التفسير والتأويل بمعنى واحد"[2]، وهو قول ثعلب[3]

وهما عند ابن فارس متقاربان رغم ما يظهر بينهما من اختلاف ويلحق بهما "المعنى" يقول: "معاني العبارات التي يعبر بها عن الأشياء ترجع إلى ثلاثة: المعنى والتفسير والتأويل وهي وإن اختلفت فالمقاصد متقاربة"[4]

وينبه ابن تيمية إلى أن التأويل في عرف المتقدمين إنما يعني التفسير ويقول عنهم:"كان لفظ التأويل عندهم بمعنى التفسير"[5]

ويذهب ابن القيم إلى عدم التمييز بين التفسير والتأويل يقول: "فأن لفظ التأويل يراد به التفسير ومعرفة معانيه"[6]

---

[1] الإتقان (294/2).
[2] القاموس (فسر).
[3] مجمع البيان (59/1).
[4] الصاحبي، ص.162، البرهان في علوم القرآن (146/2).
[5] درء تعارض العقل والنقل (381/5).
[6] دقائق التفسير (329/1).

ثانيا: القائلون بالتمييز بين التفسير والتأويل

يميز كثير من العلماء بين التفسير والتأويل ومنهم الراغب الأصفهاني وأبو القاسم النيسابوري وبدر الدين الزركشي، وهم وإن اتفقوا في القول بالتمييز لكنهم اختلفوا في أوجه التمييز.

والذي يترجح أن كل صور التمييز بين التفسير والتأويل تفتقر إلى الدليل وتكاد تكون شخصية، وعليه فإننا نختار عدم التمييز بينهما، على الأقل في هذا المجال الذي هو بيان القرآن وهو اصطلاح السلف كما تقدم فقد كانوا يستعملون التأويل بمعنى التفسير.

ثالثا:

مراحل علم التفسير وتطوراته

إن النظر في ما كتب عن تاريخ التفسير قديما أو حديثا يجده لا يعدو التاريخ الأفقي للعلم الذي يصف المراحل التي مر بها، وطبقات المفسرين واتجاهات التفسير ومناهجه والمؤلفات فيه... في حين يكاد يغيب المستوى الثاني على أهميته.

من أهم ما يعين على رصد التفسير ونظرياته "مقدمات كتب التفسير" خاصة عند حديث المفسر عن مقاصد تأليفه، وعن رؤيته ومنهجه الذي يعتمده في التفسير، وهذا يمكن ان يشكل مقدمة لعلم أصول التفسير، يضاف إلى ذلك بعض المباحث المتعلقة بطبقات المفسرين ومناهج التفسير في كتب علوم القرآن.

أضف إلى ذلك تاريخ القضايا والمفاهيم العلمية التي عالجها المفسرون في كتبهم سواء ما تعلق بشكل مباشر بمعاني الآيات ودلالاتها والأحكام المستنبطة منها أو ما يتعلق مباشرة بالبيان أي ما يتعلق بالزيادات والمستفادات والمناظرات والسجالات العلمية التي زخرت بها كتب التفسير.

إن وضع مراحل لتاريخ التفسير يدخل ضمن ما يسمى بمفهوم التحقيب في تاريخ العلوم، وهي عملية مرتبطة بتطور العلم إذ لا يتم الانتقال من مرحلة إلى أخرى إلا بعد حدوث إشكال أو أزمة أو حاجة في العلم تستدعي الانتقال من مرحلة تتجاوز فيها الإشكالات ويستجاب فيها للحاجيات، وهذا الأمر نادرا ما يشار إليه في كتب تاريخ التفسير إما بسبب غياب هذا النوع من النظر التاريخي للعلوم الشرعية، أو للاعتقاد بعدم وجود أزمة أصلا في هذا العلم.

إن المتتبع لتاريخ تدوين علم التفسير يلاحظ أنه مر بعدة مراحل متداخلة يمهد سابقها للاحقها ويكمل لاحقها سابقها.

- **المرحلة الأولى (مرحلة التأسيس):** وفيها وضعت أسس القول في التفسير على يد المعاصرين لنزول القرآن الكريم، (الرسول ﷺ) ومفهوم التأسيس هنا يشير إلى أن ما سيأتي بعد سينبئ على ما أنتج في هذه المرحلة.

أهم ما يميز هذه المرحلة خاصيتان:

أ- **<u>أنها تؤرخ للتفاعل الأول مع النص:</u>** أول فهم له في التاريخ، وهو فهم تأسس على التفاعل المباشر مع النص.

ب- <u>أن هذا الفهم للنص تم بموازاة مع تنزله في الواقع.</u>

وهما خاصيتان تتيحان لتفسير هذه المرحلة أن يكون مؤسسا وموجها لما سيأتي بعده، وأن يكون تفسيرا مبنيا على أكثر الطرق توصلا لفهم سليم للنص، حيث كانت الظروف الخارجية المحيطة بالنص، التي من شأنها عادة أن تؤثر في خصمه إيجابيا أو سلبيا هي من المؤثرات المعينة على فهمه والمساعدة على تبينه وهي ما اصطلح عليه بأحوال النزول وملابساته وأسبابه.

وفي هذه المرحلة دون التفسير ضمن كتب الحديث، فالمحدثون الذين تخصصوا في رواية أحاديث الرسول ﷺ وجمعها أفردوا بابا للتفسير في كتبهم جمعوا فيه ما روي عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين في تفسير القرآن، ومن هؤلاء يزيد بن هارون السلمي (ت117هـ) وشعبة بن الحجاج (ت160هـ) ووكيع بن الجراح (ت197هـ) وسفيان بن عيينة (ت198هـ) وروح بن عبادة (ت205هـ) وعبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت211هـ) وآدم بن أبي إياس (ت220هـ) وعبد بن حميد (ت240هـ) وغيرهم من أئمة الحديث، وكل ما رووه عن أسلافهم متصل الإسناد إليهم.

- **المرحلة الثانية (مرحلة الجمع):** والمقصود بالجمع هنا جمع الأقوال التفسيرية المنتمية إلى المرحلة السابقة (أقوال النبي ﷺ والصحابة وكبار التابعين) ونسقها مرتبة حسب ترتيب المصحف، بعد أن كانت متناثرة في صحف أو مروية ضمن ما يروى من العلم عن رجال تلك الطبقة، وقد اعتمد في هذا المنهج التوثيقي الحديثي بربط الأقوال بأسانيدها.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أمرين:

1- أن جمع التفسير في هذه المرحلة (ق3هـ) يعكس الحاجة إلى إخراج تفسير كامل مصنف ومرتب يمكن من فهم النص في مجموعه مع العلم أن من العلماء من اكتفى بجمع ما انتهى إليه من تفسير بأسانيده، وهم في الغالب من المحدثين وممن لم يكن لهم اهتمام خاص بالتفسير، كعبد الرزاق (ت211هـ) وآدم بن أبي إياس(ت220هـ) وسعيد بن منصور

(ت227هـ) والإمام أحمد (ت241ه) ولذلك كانت تفاسير هؤلاء غير كاملة، ومنهم من تحرى جمع كل الروايات، فكانت تفاسيرهم كاملة كابن جرير الطبري(ت310هـ).

2- أن جهود المفسرين والعلماء الذين قاموا بهذا الجمع لم تقف عند حدود الجمع والترتيب بل صاحبها أحيانا تفسير وإنتاج أقوال خاصة بهم بمستويات متفاوتة، ويتضح لنا هذا الأمر بضرب المثل بتفسيرين من تفاسير هذه المرحلة: تفسير ابن أبي حاتم الرازي (ت327هـ) الذي اكتفى صاحبه بجمع ما انتهى إليه من أقوال في التفسير بأسانيدها إليه. وتفسير الطبري(ت310هـ) الذي جمع الأقوال السابقة، لكنه لم يكتف بعرضها بل استثمرها في إنتاج تفسيره الخاص، وأضاف إليها الكثير.

وفي هذه المرحلة انفصل التفسير عن الحديث وأصبح علما مستقلا قائما بنفسه ودون في كتب خاصة به، جمع فيها مؤلفوها ما روي عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين مرتبا حسب ترتيب المصحف، وتم ذلك على أيدي طائفة من العلماء منهم ابن ماجة(ت273هـ) وابن جرير الطبري (ت310هـ) وأبو بكر المنذر النيسابوري (ت318هـ) وابن أبي حاتم (ت327هـ) وأبو الشيخ ابن حبان(ت369هـ) والحاكم النيسابوري (ت405هـ) صاحب "المستدرك على الصحيحين"، وأبو بكر ابن مردويه (ت410هـ) وغيرهم من الأئمة، وكل تفاسيرهم مسندة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم وليس فيها شيء غير ما رووه عنهم اللهم ابن جرير الطبري فإنه يتعرض لذكر الأقوال وتوجيهها وترجيح بعضها على بعض مع استعراض أوجه الإعراب إن دعت الحاجة إليها، واستنباط الأحكام من الآيات.

وقد شاع في هذه المرحلة أيضا نوع آخر من التفاسير اهتم فيها أصحابها بدراسة الجانب اللغوي والبياني في القرآن نذكر منها على سبيل المثال: "مجاز القرآن" و"معاني القرآن" وكلاهما لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت 211هـ)، و"معاني القرآن" و"مجاز القرآن و"إعراب القرآن" وكلها لقطرب محمد المستنير (ت206هـ) و"معاني القرآن" للكسائي (ت192هـ)، وللمبرد والفراء ولثعلب وللأصمعي.

- **المرحلة الثالثة (مرحلة الترسيم):** وهي مرحلة ما بعد الجمع التي تم فيها تداول ما جمع، وتوظيفه في إنتاج تفاسير القرون اللاحقة، وإضافة ما أمكن إضافته لهذه الأقوال

تحليلا وتفصيلا لها وترجيحا بين المختلف منها، أو إضافة لمستويات أخر من البيان لم تكن الحاجة إليها قد ظهرت من قبل.

وهي مرحلة لا تزال مستمرة إلى الآن، في تفاعل دائم مع حاجيات مقتضيات كل عصر العلمية منها والحضارية، ونظرا لاستمرارية المرحلة بحيث يستغرق الحديث عنها وعن أعلامها أو مصنفاتها الكثير من الوقت، فيحسن أن نخلص إلى أهم خصائصها:

أ- التخلي تدريجيا عن الإسناد منهجا لتوثيق الأقوال المنقولة عن السابقين.

ب- ظهور مسارات تفسيرية متنوعة بتنوع ثقافات المفسرين ومذاهبهم وتخصصاتهم العلمية...

ت- تراكم كبير لأقوال التفسير المنقولة عن العصور السابقة، وتنوع كبير في المادة التفسيرية في كتب التفسير (لغوية وفقهية وكلامية وأصولية...) وذلك بحسب طبيعة ثقافة المفسر ومذهبيته، وخصوصية العصر وحيثياته.

وتجدر الإشارة إلى أن دخول المرحلة الآتية ضمن محطة الترسيم لا يمنع منه وجود أشكال من التفسير الجديدة المختلفة شكلا عن التفاسير القديمة.

وفي هذه المرحلة دون التفسير مجردا عن الإسناد واختلط الصحيح بالضعيف ودخلت الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، وصار كل من سنح له قول يورده، ومن خطر له بباله شيء يعتمده ونقل الذين جاؤوا بعد ذلك هذه الأقوال على أنها صحيحة، ظنا منهم أن لها أصولا ثابتة دون التفات منهم إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن هم القدوة في هذا الباب. قال الإمام السيوطي (ت911هـ): "رأيت من حكي في تفسير قوله تعالى:{**غير المغضوب عليهم ولا الضالين**} نحو عشرة أقوال وتفسيرها باليهود والنصارى هو الوارد عن النبي ﷺ وجميع الصحابة والتابعين وأتباعهم حتى ابن أبي حاتم لا أعلم في ذلك اختلافا بين المفسرين.[1]

وكانت هذه من أخطر الهفوات وأوسع الفجوات لنفوذ الأعداء إلى الدين ليضعوا فيه ما لا يرتضيه، وينحلوه ما ليس من مبادئه، لولا أن الله هيأ لهذا الأمر من علماء الإسلام من

[1] الإتقان في علوم القرآن، لأبي بكر جلال الدين السيوطي (ت911هـ)، ج4، ص.243، الطبعة 1394هـ/1974م، عدد الأجزاؤ4.

كشف زيف الزائغين ودس المغرضين، وميز بين الصحيح والسقيم، وحفظ الله تعالى لهذه الأمة هذا الدين.

رابعا:

مصادر علم التفسير

تمهيد

مصادر التفسير قد تنوعت أقوال العلماء فيها، كما تنوعت أقوالهم في تسميتها، فهي عند ابن تيمية "طرق التفسير" قال رحمه الله: "فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن لأصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن... فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة..."[1]أما برهان الدين الزركشي فيصطلح عليها "مآخذ التفسير"، يقول رحمه الله: "لطالب التفسير مآخذ كثيرة أمهاتها أربعة"[2]، ونقلها عنه القاسمي في محاسن التأويل[3].

وقد يصطلح عليها "استمداد علم التفسير" كما عند محمد الخضري الدمياطي إذ يقول:" وأما ما يستمد منه فقد قال العلماء من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولا من القرآن، فإن أعياه ذلك طلبه من السنة..."[4]

وممن استعمل مصطلح "الاستمداد" محمد الطاهر ابن عاشور وله فيه اجتهاد خاص، فهو يجعل استمداد علم التفسير من علم العربية وعلم الآثار ومن أخبار العرب وأصوله الفقه وعلم الكلام وعلم القراءات[5] ولم يجعل منه القرآن والسنة وأقوال الصحابة؛ لأنها من التفسير لا من مدده يقول: "اعلم أنه لا يعد من استمداد علم التفسير الآثار المروية عن النبي ﷺ في تفسير آيات، ولا ما يروى عن الصحابة في ذلك؛ لأن ذلك من التفسير لا من مدده، ولا يعد من استمداد التفسير ما في بعض آي القرآن من معنى يفسر بعضا آخر منها؛ لأن ذلك من قبيل حمل بعض الكلام على بعض"[6].

وقد تقدمت الإشارة إلى كون محسن عبد الحميد يستعمل "أصول التفسير" بمعنى مصادر التفسير عند الحديث عن مفهوم أصول التفسير.

---

[1] مقدمة في أصول التفسير، ص93.
[2] البرهان في علوم القرآن (156/2)
[3] محاسن التأويل (7/1).
[4] مبادئ في التفسير، ص13.
[5] التحرير والتنوير (18/1).
[6] نفسه (27/1).

ومصادر التفسير يستعمل عادة في دراسة مناهج المفسرين، فيقال: مصادر التفسير عند فلان أو فلان كذا، ويستعمل المصطلح في هذا المجال غالبا ويقصد به أهم المؤلفات التي اعتمدها المفسر المدروس.

فتحت عنوان "مصادر التفسير النقلي" يقول صبري المتولي عن ابن تيمية: "اعتمد ابن تيمية على مصادر كثيرة استمد منها تفسيره... وهاك المصادر مصنفة على أسماء العلوم، والتي أمكننا استخراجها من خلال تفسيره"[1]، ثم ذكر مجموعة من المصنفات في التفسير وفي غيره.

وعن أبي عطية يقول الدكتور الوهاب فايد: "ومصادر ابن عطية في تفسيره كثيرة ومتنوعة، فمنها ما هو من كتب التفسير، ومنها ما هو من كتب القراءات، ومنها ما هو من كتب الحديث"[2].

فعند حديثه عن مصادر التفسير في عصر الصحابة حدد أربعة مصادر هي: القرآن الكريم، والنبي ﷺ، والاجتهاد وقوة الاستنباط، وأهل الكتاب[3].

وعند حديثه عن مصادر التفسير في عصر التابعين حدد خمسة مصادر هي: القرآن الكريم، السنة النبوية، أقوال الصحابة، ما أخذوه من أهل الكتاب، وما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر، ثم وجدناه يخلص إلى "المصادر التي يجب على المفسر أن يرجع إليها عند شرحه للقرآن حتى يكون تفسيره جائزا مقبولا"[4]، ويجعلها خمسة مصادر:

1-الرجوع إلى القرآن نفسه.

2-النقل عن الرسول ﷺ.

3-الأخذ بما صح عن الصحابة

4-الأخذ بمطلق اللغة.

5-التفسير بالمقتضى من معنى الكلام المقتضب من قوة الشرع.

---

[1] منهج ابن تيمية، ص70.

[2] منهج ابن عطية، ص95.

[3] التفسير والمفسرون (40/1).

[4] نفسه (273/1).

ولكننا سنختار ترتيبا ونسير عليه، مع الوعي التام بأن هذا الأمر يحتاج إلى بحث موسع: ذلك أن تفسير القرآن بالقرآن ليس رتبة واحدة عند التدقيق فهو مستويات، والتفسير بالسنة النبوية كذلك، فيمكن أن نميز فيه بين تفسير النبي ﷺ والتفسير بالسنة، والتفسير بالسنة درجات، وقل نفس الشيء عن باقي مصادر التفسير.

أولا: تفسير القرآن بالقرآن

تمهيد:

لاخلاف بين العلماء في كون القرآن الكريم أهم مصدر للتفسير، حتى قال أحد الباحثين: "يعتبر القرآن الكريم أهم مصدر من مصادر التفسير، ولقد أطبقت الأمة سلفا وخلفا على أن أصح التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، كما ذكر ابن تيمية وغيره من أساطين العلم"[1]

فما أجمل منه في مكان قد يفسر في موضع آخر، وما اختصر منه في مكان قد يبسط في موضع آخر منه، بل قد عد هذا الطريق أحسن طرق التفسير، يقول تقي الدين ابن تيمية: "فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر لقرآن بالقرآن"[2]، وعنه رحمه الله نقلت هذه العبارة[3].

وأصل هذه المسألة أن القرآن الكريم قد جرى على أساليب اللغة العربية جريا على سنته تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ﴾ [إبراهيم:4]. وغيرها من الآيات التي تصف القرآن بأنه عربي، إذ لا معنى أن يكون عربيا لغة وأعجميا أسلوبا وطرائق في التعبير، وعليه فقد اشتمل على الإطناب والإيجاز، وعلى الإجمال والتبيين، وعلى الإطلاق والتقييد، وعلى العموم والخصوص.

وتفسير القرآن بالقرآن مما فعله رسول الله ﷺ وهو المبين عن ربه، وصحت عنه في ذلك أحاديث كثيرة، وفي هذا المعنى يقول الدكتور يوسف القرضاوي: "وأول من سن لنا

---

[1] البرهان في علوم القرآن (156/2).

[2] مقدمة في أصول التفسير، ص93.

[3] انظر مثلا: تفسير القرآن العظيم (6/1)، والبرهان في علوم القرآن (175/2)، والإتقان (1187/2).

ذلك وعلمه لنا هو رسول الله ﷺ[1]، وجعل ذلك علامة على أحسن التفاسير وأكمل المفسرين فقال: "وأكمل المفسرين من نهج النهج النبوي في تفسير القرآن بالقرآن"[2].

من تفسير النبي ﷺ ما أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:82]، شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ قال رسول الله ﷺ: إنه ليس بذاك ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:13]"[3].

والحديث بهذه الرواية يدل على أن رسول الله ﷺ إنما فسر الظلم في سورة الأنعام بالذي جاء في سورة لقمان، وهو بذلك يعلم السائل ومن بعده بأن إشكالات كثيرة قد تطرأ إذا لم يفسر القرآن بالقرآن، وأن الانسان قد يشكل عليه أمر ما في القرآن وفي القرآن حل ذلك، ولا سبيل لظفره بذلك إلا بحمل الآيات بعضها على بعض، فلعل ما أجمل في موضع فصل في موضع آخر، وما أبهم في مكان بين في مكان آخر، وما أطلق في سورة أو آية قيد في أخرى، وما جاء عاما في سياق خصص في سياق آخر، فلا بد من ضم الآيات بعضها إلى بعض حتى يتكامل الفهم، ويستبين المقصود من النص.

وأخرج أحمد والترمذي والحاكم وصححه وغيرهم عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ [إبراهيم:16-17]، قال: "يقرب إلى فيه فيكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقع فروة رأسه، فإذا شرب قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:15]، وقال تعالى:

---

[1] المرجعية العليا، ص44، وكيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص220.

[2] المرجعية العليا، ص45 وانظر نفس المعنى في لغة القرآن، ص414.

[3] الحديث في صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء رقم (3360)، وأخرجه أيضا مسلم في صحيحه كتاب الإيمان رقم (124)، والترمذي في سننه كتاب التفسير رقم (5062).

﴿وَإِنْ يَّسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِے اِ۬لْوُجُوهَۖ بِيسَ اَلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ [الكهف: 29][1].

وأخرج أحمد وغيره عن أبي الدرداء ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "قال الله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا اَلْكِتَٰبَ اَلذِينَ اَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٞ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٞ وَمِنْهُمْ سَابِقُۢ بِالْخَيْرَٰتِ ﴾ [فاطر:32]، فأما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلقاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون:{الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن} [فاطر:34][2].

ونظرا لما لهذا المصدر من أهمية بالغة في التفسير فقد حكى بعضهم إجماع العلماء على أنه أشرف أنواع التفسير، وحسبنا هنا نصان يؤكدان هذا الذي نقول: يقول محمد أمين الشنقيطي وهو يتحدث عن أسباب تأليفه كتاب أضواء البيان: "واعلم أن من أهم المقصود بتأليفه أمران: أحدهما بيان القرآن بالقرآن؛ لإجماع العلماء على أنه أشرف أنواع التفسير وأجلها تفسير كتاب الله بكتاب الله؛ إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله جل وعلا[3]. ويقول الدكتور محسن عبد الحميد: أجمعت الأمة سلفا وخلفا على أن أصح طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن كما قال ابن تيمية[4].

1) الأدلة على تفسير القرآن بالقرآن

ونعتبر أن من المباحث المهمة التي يجب بحثها في أي مصدر من مصادر التفسير حجيته والأدلة على اعتباره مصدرا للتفسير؛ وذلك لبيان مشروعية الاعتماد على ذلك المصدر، وقوة أي مصدر من قوة الأدلة الدالة عليه وضعفه من ضعفها.

---

[1] الحديث في مسند أحمد كتاب باقي مسند الأنصار رقم (22285)، وسنن الترمذي كتاب أبواب صفة جهنم باب ما جاء في صفة شراب أهل النار رقم (2709)، والمستدرك التفسير تفسير سورة إبراهيم عليه السلام (351/2).

[2] الحديث في مسند أحمد كتاب مسند الأنصار رقم (20734).

[3] أضواء البيان (6/1).

[4] المنار في علوم القرآن، ص147، وانظر القول بالإجماع أيضا في أصول التفسير وقواعده، ص79.

أما القرآن الكريم فالأدلة على كونه مصدرا من مصادر التفسير من القرآن والسنة وغيرهما:

فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ثُم إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴾ [القيامة:17-19]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ٱلْاَخِرِ ﴾ [النساء:59].

فعندما نحمل آية غمض معناها على آية أخرى تفسرها نكون قد رددنا الأمر إلى الله[1].

والدليل من السنة النبوية على تفسير القرآن ما تقدم من فعله ﷺ في تفسير بعض الآيات القرآنية.

وقد استدل ابن تيمية على هذا بحديث معاذ حين بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيا فقال له: "كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: "فإن لم تجد في كتاب الله؟" قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: "فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: "الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله"[2].

قال ابن تيمية بعد أن استدل بالحديث على طلب التفسير أولا في القرآن ثم بالسنة:"وهذا الحديث في المساند والسنن بإسناد جيد"[3]، والشاهد منه قوله: "بكتاب الله" جوابا لسؤال: بم تقضي؟

وتفسير القرآن بالقرآن مما تشهد له العقول السليمة، كما يقول الدكتور محمد علي الحسن: "وأما الدليل العقلي فهو أن القائل أحق من غيره في تفسير مقوله، ثم إن القرآن

---

[1] المنار في علوم القرآن، ص148.

[2] الحديث في سنن أبي داود كتاب الأقضية رقم (3592)، وسنن الترمذي كتاب الأحكام رقم (1342)، ومسند أحمد كتاب مسند الأنصار رقم (22061).

[3] مقدمة في أصول التفسير، ص94.

الكريم هو المصدر الأول من مصادر الإسلام، فيعتبر بالضرورة المصدر الأول في التفسير"[1].

وممن أكد على تفسير القرآن بالقرآن الزمخشري بقوله: "أشد المعاني ما دل عليه القرآن"[2].

2) أوجه تفسير القرآن بالقرآن

تتعدد أوجه تفسير القرآن بالقرآن وتتنوع، وفي غياب أي إحصاء دقيق وشامل لها تبقى الأمثلة التي تقدمها نماذج مختارة:

أ- بيان المجمل

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:7]، بين الذين أنعم عليهم في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقاً﴾ [النساء:69].

من ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:37]، بينها قوله تعالى: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:23].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْماً ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان:25-82]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلأَرْضِ﴾ [الأعراف:137]، بين المراد بالقوم في الآيتين قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾[الشعراء:57-59].

---

[1] المنار في علوم القرآن، ص148.

[2] الكشاف (193/2).

ب- تقييد المطلق

مثل ذلك قوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة:3].

وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَّكُونَ مَيْتَةً اَوْ دَماً مَّسْفُوحاً اَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ ﴾ [الأنعام:145].

فإن لفظ الدم في الآية الأولى جاء مطلقا وفي الثانية جاء مقيدا فوجب حمل الآية الأولى على الثانية، فنفهم منه أن الدم المحرم هو الدم المسفوح الذي وقع بيانه في الآية الثانية[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَّكْفُرْ بِالِايمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ ﴾ [المائدة:5]. فالإحباط هنا مطلق ومعلق بالردة ولم يشترط شيئا آخر، وقال تعالى أيضا: ﴿ وَمَنْ يَّرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتَ اَعْمَٰلُهُمْ﴾ [البقرة:217]. فالردة التي تورث جهنم هي التي يموت عليها صاحبها، فهي هنا مقيدة بالوفاة.

ت- تخصيص العام

ومنه ما وقع في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَالْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٣﴾﴾ } [البقرة:254]، ففي هذه الآية نفي للخلة والشفاعة بشكل عام، وقد خص الله المتيقن من عموم نفي الخلة في قوله تعالى: ﴿ٱلَاخِلَّآءُ يَوْمَئِذِۢ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ اِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف: 67]، وخص من عموم نفي الشفاعة، ما أذن فيه من الشفاعة بقوله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي اِ۬لسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا اِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَنْ يَّاذَنَ ٱللَّهُ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم:26][2].

---

[1] أنظر أصول التشريع الإسلامي، ص225، وأصول التفسير وقواعده، ص407.

[2] انظر هذا المثال في إيثار الحق،ص151.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ يَّعْمَلْ سُوٓءاً يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:123]، فإنها خرجت مخرج العموم لكنها مخصصة بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ بِمَا كَسَبَتَ آيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى:30][1]، فقوله فيها:{ويعفوا عن كثير﴾ مخصص لعموم {من يعمل سوءا يجز به) ومقيد لإطلاقها كأنه قال: إلا أن يعفو، بدليل هذه الآية، مثل ما أنها مخصصة بآيات التوبة فإنه مقدر فيها: إلا أن يتوبوا بالإجماع وبالنصوص في التائبين[2].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنُ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلآَ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة:173]، ذكر في الآية أن المحرم هو الميتة والدم بصفة عامة، لكن الجمهور خصصوا من ذلك ميتة البحر بدليل قوله تعالى:{أحل لكم صيد البحر وطعامه}[3]

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراًۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة:234]. خص من عموم الآية الحامل المتوفى عنها زوجها فإن عدتها بوضع الحمل لقوله تعالى:{وَأُوْلَٰتُ ٱلاَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَّضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ﴾ [الطلاق:4][4].

ث- الجمع بين ما يتوهم أنه مختلف

ومن تفسير القرآن بالقرآن الجمع بين ما يتوهم أنه مخالف كخلق بني آدم من تراب كما في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِالذِے خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ [الكهف:37]، وخلقه من طين في غير آية ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلذِے خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام:2،

---

[1] انظر هذتا المثال في إيثار الحق، ص151.

[2] نفسه.

[3] انظر المثال في محاسن التأويل(38/3)

[4] محاسن التأويل (262/3).

وغيرها]، وهو تراب مختلط بالماء ففيه زيادة على التراب المطلق، وكذلك خلقه من صلصال كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلِانسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر:26، وغيرها]، فإنه أخص من الجميع؛ لأنه طين مخصوص[1].

ج- التقيد بالمعاني المبينة لمدلول المفردات في القرآن

ومن تفسير القرآن بالقرآن التقيد بمدلول المفردات التي تكفل الله ببيان معانيها في القرآن، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلِانسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا﴿١٩﴾ مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا﴿٢٠﴾ مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعاً ﴿٢١﴾﴾ [المعارج:19-21] فلفظة الهلوع بينتها بقية الآية.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرِيكَ مَا سَقَرُ لَآ﴿٢٧﴾ تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ﴿٢٨﴾ لِّلْبَشَرِ عَلَيْهَا﴿٢٩﴾ تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾[المدثر:26-30] ففي الآية بيان لبعض معاني سقر أعاذنا الله منها.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى:{ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون}، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُومِنُونَ ٱلذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:2].

وجمع الآيات هو السبيل أيضا لتفنيد الدعوى أن الإسلام أعطى المرأة نصف حظ الرجل دون جمع الآيات التي تتحدث عن الإرث في المستوى الأول.

3) درجة تفسير القرآن بالقرآن

وعن قيمة تفسير القرآن بالقرآن يرى صبري المتولي أن "هذه الطريق لا بد منها لمن أراد العلم القطعي والتأويل الصحيح للآية، فما يعلم تأويل كلام الله إلا الله سبحانه؛ ولأن المفسر إذا بدأ التفسير بهذه الطريق يحق له أن يقول بملء فيه: هذا المراد الحقيقي للآية

[1] إيثار الحق، ص.152.

الكريمة"، وواضح من هذا القول أنه يجعل طريق تفسير القرآن بالقرآن يفيد القطع وليس الظن؛ إذ لا مجال للرأي فيه.

وعلى عكس ذلك يتجه أبو زهرة إلى أن تفسير القرآن بالقرآن هو تفسير بالرأي والاجتهاد فيقول عنه: "إن ذلك بلا شك نوع من الرأي والاجتهاد"[1].

وإلى نفس الرأي يميل الدكتور محمد حسين الذهبي فيرى أن تفسير القرآن بالقرآن يقوم على كثير من التدبر والتعقل، وعليه فهو ضرب من الاجتهاد يقول:"هذا هو تفسير القرآن بالقرآن، وهو ما كان يرجع إليه الصحابة في تعريف معاني القرآن، وليس هذا عملا آليا لا يقوم على شيء من النظر، وإنما هو عمل يقوم على كثير من التدبر والتعقل؛ إذ ليس حمل المجمل على المبين أو المطلق على المقيد أو العام على الخاص أو إحدى القراءتين على الأخرى بالأمر الهين الذي يدخل تحت مقدور كل إنسان، وإنما هو أمر يعرفه أهل العلم والنظر خاصة"[2]

ولعل ما اختاره خالد بن عثمان السبت الأقرب إلى الصواب حين يجعل تفسير القرآن بالقرآن يفيد القطع في حالات محدودة، وهي أن يكون ذلك من رسول الله ﷺ أو وقع عليه الإجماع أو قاله أحد الصحابة ولم يعلم له مخالف، فيقول: "وتفسير القرآن بالقرآن يعد أقوى أنواع التفسير، إلا أنه لا يقطع بصحته إلا إن كان الذي فسر بالآية رسول الله ﷺ، أو وقع عليه الإجماع، أو صدر عن أحد الصحابة ولم يعلم له مخالف، وأما ما عدا هذه الصورة فإنه لا يجزم بصحته؛ لأنه اجتهاد من قائله يخطئ فيه ويصيب، مع أن الطريق التي سلكها من حيث المبدأ صحيحة لكنه قد يخطئ في التطبيق، وبهذا تعرف أن للاجتهاد مدخلا في هذا النوع من أنواع التفسير فلا يختلط الأمر عليك"[3]

4)تفسير القرآن بالقرآن عند المفسرين

إن اعتبار القرآن الكريم مصدرا من مصادر التفسير أمر مجمع عليه كما سبق أن بينا بالأدلة النقلية والعقلية، ونظرا لذلك فإن أغلب من فسر القرآن الكريم استثمره.

---

[1] المعجزة الكبرى، ص57.

[2] التفسير والمفسرون (41/1).

[3] قواعد التفسير (109/1).

ولقد سبقت الإشارة إلى كون رسول الله ﷺ أول من سن هذا النهج وأرشد إليه، ونضيف الآن أن الصحابة رضوان الله عليهم قد اعتمدوا هذا النهج أيضا "فراحوا يستعينون بآيات قرآنية ليفسروا بها آيات اخرى، مثال ذلك ما قاله ابن عباس في تفسير قوله تعالى:{فتلقى آدم من ربه كلمات} [البقرة:37]، حيث فسرها بقوله: هي قوله تعالى: {ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين} [الأعراف:22][1]، والأمثلة على ذلك كثيرة جدا، وعلى طريقة الصحابة سار التابعون فكان القرآن الكريم المصدر الأول للتفسير عندهم، وكذلك أتباع التابعين وعموم المفسرين.

ثانيا: تفسير القرآن بالسنة

تمهيد:

لا خلاف بين العلماء في كون السنة النبوية من أهم مصادر التفسير، وهي بحسب الذي اختاره ابن تيمية تأتي بعد القرآن، وفي ذلك يقول رحمة الله عليه بعد الحديث عن تفسير القرآن بالقرآن:"فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة شارحة للقرآن وموضحة له"[2]،فهو إذا يضعها في المرتبة الثانية، ويقول في موضع آخر من كتابه: "تطلب تفسير القرآن منه فإن لم تجد فمن السنة"[3].

إلا أن هناك صعوبة حقيقية في الترتيب بين القرآن والسنة متى صحت؛ إذ لو فرض أنه وجد للآية معنى في موضع آخر من القرآن فهل يمكن الاكتفاء به أم لا بد أن لا تعارضه السنة.

1) حجية التفسير بالسنة

قال ابن الوزير: "التفسير بالسنة... مقبول بالنص والإجماع"[4]، أما النصوص فكثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَا ءَاتِيكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهِيكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [1] [الحشر:7]

---

[1] انظر تفسير الصحابة،ص23.

[2] مقدمة في أصول التفسير، ص93.

[3] مقدمة في أصول التفسير، ص94.

[4] إيثار الحق، ص152.

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:44][2].

ومن الحديث النبوي: ما رواه أبو داود عن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال:" ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه..."[3] فقوله: "يوشك رجل شبعان" المقصود منه التحذير من مخالفة السنة التي سنها الرسول ﷺ وليس لها ذكر في القرآن كما هو مذهب الخوارج والروافض الذين تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التي ضمنت بيان الكتاب فتحيروا وضلوا[4].

وقد روي الحديث السابق بصيغ متقاربة منها قوله ﷺ "لا يأتي رجل مترف متكئ على أريكته يقول: لا أعرف إلا هذا القرآن ما أحله أحللته وما حرمه حرمته ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه"[5].

وعن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه عن النبي ﷺ قال: "لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا ندري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه"[6].

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه أنه حضر ورسول الله ﷺ يخطب الناس وهو يقول: "أيحسب أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن الله لم يحرم شيئا إلا ما في هذا القرآن، ألا وإني والله قد وضعت وأمرت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر"[7]

وفي الاستدلال بالإجماع على حجية تفسير القرآن بالسنة قال ابن الوزير:"ويدل على ذلك أن الإجماع قد انعقد على نسخ وجوب الوصية للوارثين بحديث: "لا وصية لوارث"[1]،

---

[1] إيثار الحق، ص152.

[2] إيثار الحق، ص 152.

[3] الحديث في سنن أبي داود السنة رقم (4604)، ونحوه في مسند أحمد، كتاب مسند الشاميين رقم (17174).

[4] جامع الأحكام (37/1).

[5] إيثار الحق، ص152.

[6] الحديث في سنن أبي داود كتاب السنة رقم (4605)، وسنن ابن ماجة المقدمة رقم (13)، والرسالة،ص89.

[7] الحديث في سنن أبي داود كتاب الخوارج والإمارة والفيء رقم (3050)، والإحكام في أصول الأحكام (115/2).

وهو حديث حسن، وإذا وجب قبول ذلك فينسخ فريضة منصوصة فيه فكيف سائر البيان والتخصيص، وقبوله في نسخ وجوب الوصية إجماع العترة والأمة"[2].

قال ابن حزم:"جاء النص ثم لم يختلف فيه مسلمان في أن ما صح عن رسول الله ﷺ أنه قاله ففرض اتباعه، وأنه تفسير لمراد الله تعالى في القرآن، وبيان لمجمله"[3].

قال الشاطبي: "بيان رسول الله ﷺ بيان صحيح لا إشكال في صحته؛ لأنه لذلك بعث، قال تعالى:" ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ﴾ [النحل:44]، ولا خلاف فيه[4].

قال أيضا:"من تأويل القرآن ما لا يدرك علمه إلا ببيان الرسول ﷺ، وذلك يفصل جمل ما في آيه من أمر الله ونهيه، وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه، وسائر معاني شرائع دينه الذي هو مجمل في ظاهر التنزيل، وبالعباد إلى تفسيره حاجة لا يدرك علم تأويله إلا ببيان من عند الله، على لسان رسول الله ﷺ"[5].

يمكن أن نميز في التفسير بالسنة النبوية بين مستويات متعددة:

- منها ما يفسر النبي من غير سؤال.
- ومنها ما يكون جوابا لسؤال في معنى آية ما.
- ومنها ما يأتي على صيغة خبر مختوم بقول الراوي:"ثم تلا قوله تعالى كذا".
- ومنها ما يختمه النبي بقوله:"واقرؤوا إن شئتم قوله تعالى كذا".

2) أوجه بيان السنة للقرآن

لقد اهتم العلماء بتتبع ما بينه الرسول ﷺ لبيان الأوجه التي تركز عليها البيان النبوي، ويمكن أن نقول منذ البداية أن الرسول ﷺ لم يترك شيئا إلا وقد بينه ﷺ، وأنه لا يجوز

---

[1] الحديث في صحيح البخاري كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، وفي سنن الترمذي كتاب الوصايا رقم (2203)، وفي سنن النسائي كتاب الوصايا رقم(3639)، وفي سنن أبي داود كتاب الوصايا رقم (2870).

[2] إيثار الحق، ص152.

[3] الإحكام في أصول الأحكام (93/1).

[4] الموافقات (17/4).

[5] نفسه (87/1).

تعدي أوجه البيان التي حددها ﷺ، وإن الوجوه التي تحدد إنما هي بحسب المادة المستقرأة، ولقد قلنا في البداية أن الذي هيمن على هذا المجال إنما هو المجال الفقهي؛ ولذلك غالبا ما تكرر نفس الصور، وإن المطلوب من العلماء إدخال باقي الأوجه من مثل بيان نعم الجنة وبيان قصص الأنبياء ورفع الإشكالات، مثل ما وقع مع إبراهيم عليه السلام ونحو ذلك، ولا بأس من الوقوف على الأقل في الموجود من تفسيره ﷺ في كتب الحديث ومحاولة تلمس أوجه البيان...

لقد هيمن الجانب الفقهي على بحث العلاقة بين القرآن والسنة وأغفل بسبب ذلك جوانب القرآن الأخرى التي تكلفت السنة النبوية ببيانها، ويأتي ذلك في إطار التقلص الذي عرفته "في ثقافتنا الإسلامية الرؤية القرآنية الشاملة... وأصبحت المصادر الإسلامية تقرأ على أنها فقه... السيرة تقرأ على أنها فقه، والسنة كذلك والقرآن على أنه فقه، ولا أقصد بالفقه هذا المعنى العام الذي يعني فقه الحياة كما ورد في القرآن، وإنما الفقه الذي انتهى إليه المعنى الاصطلاحي وهو استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية"[1]

ومن هذه الهيمنة الفقه ما ذكره د. محمد إبراهيم الحفناوي قائلا: "ترد السنة مع القرآن على ثلاثة أوجه هي"

1-أن تكون مؤيدة لأحكام القرآن موافقة له من حيث الإجمال والتفصيل، وذلك مثل الأحاديث التي تدل على وجوب الصلاة والصيام...

2-أن تكون مبينة لأحكام القرآن من تخصيص عام وتقييد مطلق أو تفصيل مجمل، ونحو ذلك.

3-أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه، أو محرمة لما سكت عن تحريمه"[2] فالملاحظ أن الذي يتردد في الأقسام الثلاثة إنما هو الحديث عن الأحكام.

واختلف تناول العلماء لأوجه بيان السنة للكتاب وعددوا من ذلك الأوجه التالية:

أ- توضيح المشكل

[1] كيف نتعامل مع القرآن، ص47.

[2] دراسات في القرآن الكريم، ص449.

ومن ذلك تفسيره ﷺ الخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:187] بأنه بياض النهار وسواد الليل، فعن عدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله ما الخيط الابيض من الخيط الاسود أهما الخيطان؟ قال: "إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين" ثم قال": لا، بل هو سواد الليل وبياض النهار"[1].

ومن ذلك أيضا حين أشكل على عدي بن حاتم معنى قوله تعالى:{اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم} [التوبة:31] فقال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: "يا عدي اطرح عنك هذا الوثن"، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:31]، قال: "أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه"[2].

ب- تفصيل المجمل

ومن الأمثلة على ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:43] فبينت السنة مواقيتها، وأركانها وشروطها، وعدد ركعاتها، وكيفية أدائها، وفال ﷺ: "صلوا كما رأيتموني أصلي"[3].

وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:97]، فبينت السنة مواقيت الحج، وأركانه، وشروطه، وعدد أشواط طوافه وسعيه، وكيفية أدائه، قال ﷺ: "خذوا عني مناسككم"[1].

---

[1] الحديث في صحيح البخاري كتاب الصوم رقم (1916) ومواضع أخرى، وصحيح مسلم كتاب الصيام رقم (1090)، وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن رقم (4050)، وسنن أبي داود كتاب الصوم رقم (2349)، وسنن النسائي كتاب الصيام رقم (2167) وغيرهم.

[2] الحديث في سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن رقم (5093).

[3] الحديث في صحيح البخاري كتاب الأذان رقم (595) ومواضع أخرى.

ومثله بيان أحكام الزكاة، وقد جاء الأمر به مجملا في القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:43].

ت- تخصيص العام

لم يختلف علماء الإسلام في أن السنة المتواترة تخصص عموم القرآن[2]، قال الآمدي: "أما إذا كانت السنة المتواترة، فلم أعرف فيه خلافا"[3].

أما تخصيصه بسنة الآحاد بالجمهور من علماء الإسلام قد ذهبوا إليه، ولهم أدلة كثيرة منها أن الصحابة قد خصصوا القرآن بخبر الواحد من غير نكير فكان إجماعا[4].

واستدل الجمهور أيضا بأن عموم القرآن قطعي المتن، ظني الدلالة، والسنة المخصصة ظني المتن قطعي الدلالة، فلكل قوة من وجه فوجب الجمع؛ لأننا إن اعتبرنا عموم القرآن أبطلنا السنة بالمرة، والجمع أولى من الإبطال[5].

ومن ذلك أن الله تعالى أمر أن يرث الأولاد الآباء أو الأمهات على نحو ما بين في قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء:11] فقصرت السنة الأصل الموروث على غير الأنبياء بقوله صلى الله اليه وسلم: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة"، وقصرت الولد الوارث على غير القاتل بقوله ﷺ: "لا يرث القاتل"[6]

---

[1] الحديث في صحيح مسلم كتاب الحج رقم (2286)، وسنن أبي داود كتاب المناسك رقم (1970)، وسنن النسائي كتاب مناسك الحج رقم (3060).

[2] شرح مختصر المنتهى(149/2)،إرشاد الفحول (561/2).

[3] الإحكام في أصول الأحكام للآمدي (310/2°، إرشاد الفحول (561/2).

[4] إرشاد الفحول (562/2).

[5] شرح مختصر المنتهى (149/2)، الإحكام في أصول الأحكام للآمدي (322/2).

[6] الحديث في سنن أبي داود كتاب الديات رقم (4564)، وسنن الترمذي كتاب الفرائض رقم (2192)، وسنن ابن ماجة كتاب الديات رقم (2645).

ومن ذلك تخصيص العام في قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ [النساء:24] بقوله ﷺ:"يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب"[1].

وخصصوا قوله تعالى:{ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ [البقرة:173] بالخبر المروي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال ﷺ: "أحلت لنا ميتتان ودمان، أما الميتتان فالجراد والنون وأما الدمان فالطحال والكبد"[2].

ث- تقييد المطلق

وقد جاءت آيات كثيرة مطلقة فقيدتها السنة:

ومن ذلك ورود الوصية مطلقة في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ [النساء:11] فقيدها الرسول ﷺ بعدم الزيادة على الثلث بحديث سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي فقلت: إني قد بلغ بي من الوجع وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: "لا" قلت: بالشطر؟ قال: "لا"، ثم قال" الثلث والثلث كبير أو كثير؛ إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس".. الحديث[3].

---

[1] الحديث في صحيح البخاري كتاب الشهادات رقم (2451)، وصحيح مسلم كتاب الرضاع رقم(1444)، وسنن الترمذي كتاب الرضاع رقم (1156)، وسنن النسائي كتاب النكاح رقم (3299)، وسنن أبي داود كتاب النكاح رقم (2055)، وسنن ابن ماجة كتاب النكاح رقم(1937).

[2] الحديث في سنن ابن ماجة كتاب الأطعمة رقم (3314)، ومسند أحمد كتاب مسند المكثرين من الصحابة رقم (5723).

[3] صحيح البخاري كتاب الوصايا رقم (2742)، ومواضع أخرى صحيح مسلم كتاب الوصية رقم (1268)، سنن الترمذي كتاب الوصايا رقم (2199)، سنن أبي داود كتاب الوصايا رقم (2864).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء:24] والذي يفيد إباحة الزواج بما عدا المحرمات، فقيدت السنة هذا الحل بقوله ﷺ:"لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا على ابنة أختها فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم".[1]

ج- بيان الأحكام الزائدة

وقد يلحق بعضهم بأوجه بيان الرسول ﷺ للقرآن بيان الأحكام الزائدة عليه، وقد جعله القرطبي الوجه الثاني من أوجه البيان قال:"وبيان آخر وهو زيادة على حكم الكتاب"[2]

ومن أمثلة ذلك تحريم لحم الحمر الأهيلة بدليل حديث جابر وغيره أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل الحمر الأهلية[3].

ومن ذلك تحريم كل ذي ناب من السباع كما دل عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع وعن كل ذي مخلب من الطير[4].

ثالثا: التفسير بأقوال الصحابة

تصنف أقوال الصحابة من بين مصادر التفسير المهمة، إلا أن الإجماع الحاصل على المصدرين السابقين القرآن والسنة لا نجده مع أقوال الصحابة، وليس من شرط مصادر التفسير أن تكون كلها مجمعا عليها؛ بل يكفي اعتبارها من طرف الجمهور، وهذا الميزان هو المتعارف عليه في مصادر التشريع، فإذا تجاوزنا الكتاب والسنة لا نجد مصدرا آخر عليه الإجماع، فالإجماع والقياس مثلا ورغم كونهما من أهم المصادر بعد الكتاب والسنة

---

[1] الحديث في صحيح البخاري كتاب النكاح رقم(5108)، وصحيح مسلم كتاب النكاح رقم (1408)، وسنن الترمذي كتاب النكاح رقم (1136)، وسنن النسائي كتاب النكاح رقم (3292) وغيرهم.

[2] جامع الأحكام (56/1).

[3] الحديث في صحيح البخاري كتاب الذبائح والصيد رقم(5097)، وصحيح مسلم كتاب الصيد والذبائح رقم (3583)، وسنن الترمذي كتاب الأطعمة رقم (1716)، وسنن النسائي كتاب الصيد والذبائح رقم(4324)، وسنن أبي داود كتاب الأطعمة رقم (3315)، وسنن ابن ماجة كتاب الصيد رقم (3187).

[4] الحديث في صحيح البخاري كتاب الذبائح والصيد رقم (5104)، وصحيح مسلم كتاب الصيد والذبائح رقم (3571)، وسنن النسائي كتاب الصيد والذبائح رقم (4322)، وسنن أبي داود كتاب الأطعمة رقم (3296)، وسنن ابن ماجة كتاب الصيد رقم (3525).

ليس مجمعا عليهما، وقل نفس الشيء ومن باب أولى عن المصالح المرسلة والاستحسان والاستصحاب وشرع من قبلنا وسد الذرائع وغير ذلك من المصادر المختلف فيها.

وهكذا سنجد العلماء يختلفون في حجية تفسير الصحابي، ولم يأت تخصيص تفسير الصحابة بالاعتبار اعتباطيا؛ بل يرجع ذلك إلى منزلة الصحابة رضوان الله عليهم، فيهم أهل اللسان العربي الذي نزل به القرآن، وقد جالسوا الرسول ﷺ، وهم أعلم الناس بعادات العرب وأحوالهم وأخبارهم التي جاء القرآن بمعالجتها. وعنهم رضوان الله عليهم يقول الشافعي:"وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل وأمر استدرك به علم واستنبط به، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا والله أعلم"[1].

ولقد عرف عنهم عناية خاصة بالقرآن الكريم، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:"والذي لا إله غيره ما نزلت آية في كتاب الله، إلا وأنا أعلم فيم نزلت؟ وأين نزلت؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته"[2].

وعن علي رضي الله عنه قال: "سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل"[3].

والرواية عنهم في هذا الميدان من الكثرة والانتشار بحيث تكفي الإشارة إلى ما تقدم.

1)حجية التفسير بأقوال الصحابة

جمهور العلماء على اعتبار أقوال الصحابة في التفسير بعد القرآن والسنة، في ذلك يقول ابن تيمية:"إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعت في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك"[4]، وهو ما أكده ابن القيم بقوله:"فإن قيل... فما تقولن في أقوالهم في التفسير القرآن؟ هل هي حجة يجب المصير إليها؟ قيل: لا ريب أن أقوالهم في التفسير أصوب من أقوال من بعدهم".

بينما اعتبر الزركشي أقوالهم المآخذ الثاني من مآخذ التفسير حسب اصطلاحه؛ إذ يقول: "لطالب التفسير مآخذ كثيرة أمهاتها أربعة... الثاني الأخذ بقول الصحابي".

---

[1] علوم الحديث، ص267.

[2] جامع البيان (شاكر) (80/1).

[3] جامع الأحكام(39/1)

[4] مقدمة في أصول التفسير، ص95.

أما أسباب اعتبار أقوال الصحابة في التفسير فيجملها ابن تيمية في قوله:"إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعت في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك؛ لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح"[1].

المستفاد من كلام ابن تيمية أن الأمر يتعلق بأمرين:

أحدهما موضوعي: وهو ما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها.

ثانيهما ذاتي: وهو ما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح.

قال أبو يعلى الفراء: "وأما تفسير الصحابة فيجب الرجوع إليه"[2]، ثم يبرز ذلك بقوله:"والوجه فيه أنهم شاهدوا التنزيل وحضروا التأويل، فعرفوا ذلك؛ ولهذا جعلنا قولهم حجة"[3].

ويميز الشاطبي بين ما أجمعوا عليه وما اختلفوا فيه، قائلا: "وأما بيان الصحابة فإن أجمعوا على ما بينوه فلا إشكال في صحته... وإن لم يجمعوا عليه فهل يكون بيانهم حجة أم لا؟ فيه نظر وتفصيل، ولكنهم يترجح الاعتماد عليهم في البيان من وجهين:

أحدهما: معرفتهم باللسان العربي، فإنهم عرب فصحاء، لم تتغير ألسنتهم ولم تنزل عن رتبتها العليا فصاحتهم، فهم أعرف في فهم الكتاب والسنة من غيرهم، فإذا جاء عنهم أو عمل واقع البيان صح اعتماده من هذه الجهة.

والثاني: مباشرتهم للواقع والنوازل وتنزيل الوحي بالكتاب والسنة، فهم أقعد في القرائن الحالية وأعرف بأسباب التنزيل، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك؛ والشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

فمتى جاء عنهم تقييد بعض المطلقات، أو تخصيص بعض العمومات فالعمل عليه صواب، وهذا إن لم ينقل عن أحد منهم خلاف في المسألة، فإن خالف بعضهم فالمسألة اجتهادية"[4].

---

[1] مقدمة في أصول التفسير،ص95.

[2] لعدة (721/3).

[3] العدة (724/3).

[4] الموافقات(338/3).

وللشاطبي موقف آخر يجعل فيه الرجوع إلى أقوال الصحابة إلزاميا، وهو حين يكون تنزيل النص متوقف على بيان الصحابي، يقول: "فإذا جاء في القرآن أو في السنة من بيانهم ما هو موضوع موضع التفسير، بحيث لو فرضنا عدمه لم يمكن تنزيل النص عليه على وجهه، انحتم الحكم بإعمال ذلك البيان"[1].

و لا شك أن الميزة الأساسية للصحابة رضوان الله عليهم هو كونهم صحبوا رسول الله ﷺ. وتعلموا منه فهم ورثته، ومعلوم أنهم في تعاملهم مع النص القرآني لم يقتصروا على الألفاظ، ولا كان هذا ليجري عليهم كما يقول ابن تيمية: "من المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه فالقرآن أولى بذلك، وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالطب واحساب ولا يستشرحوه، كيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم"[2].

ولقد حاج ابن عباس الخوارج في مناظراته لهم بأن الصحابة أعلم بتأويل القرآن من غيرهم وأجابهم عن سؤال من أين جئت؟ قائلا: "جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله، عليهم نزل الوحي وهم أعلم بتأويله"[3]، فربط رضي الله عنه بين العلم بالقرآن ومشاهدة التنزيل.

وقد أرجع أحد الباحثين اعتبار أقوال الصحابة إلى أربعة مبررات:

أولها: معرفة أوضاع اللغة العربية واسرارها.

ثانيها: معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها في عصر التنزيل.

والثالث: معرفة أسباب النزول.

والرابع: قوة الفهم وسعة الإدراك[4]..

ويضاف لهذا كله منهجهم في التلقي عن رسول الله ﷺ الذي يجمع بين السؤال عن اللفظ والسؤال عن المعنى؛ بل كان الحرص عن المعنى لا يقل أهمية عن الحرص على اللفظ فلا يستزيدون من اللفظ إلا بعد معرفة معاني ما أخذوا من الألفاظ السابقة، وهذا هو معنى رواية أبي عبد الرحمان السلمي حين يقول:"حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن كعثمان بن

---

[1] الموافقات(340/3).

[2] مقدمة في أصول التفسير،ص37.

[3] تفسير ابن عباس، ص15. وجامع بيان العلم (104/2).

[4] ابن عباس ومدرسته، ص83. وانظر أيضا في الفرقان والقرآن، ص 355، وأصول التشريع، ص36.

عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا"[1].

وفي هذا المعنى يقول ابن القيم:"فالصحابة أخذوا عن رسول الله ﷺ ألفاظ القرآن ومعانيه؛ بل كانت عنايتهم بأخذ المعاني؛ أعظم من عنايتهم بالألفاظ، يأخذون المعاني أولا، ثم يأخذون الألفاظ ليضبطوا بها المعاني حتى لا تشذ عليهم"[2] ويرجع صديق خان قيمة تفسير الصحابي –أو تفسير علمائهم على الأقل كما _ يقول،إلى اعتبارين اثنين هما،التلقي من رسول الله ﷺ والعلم باللغة العربية، قائلا: "فإنه يبعد كل البعد أن يفسر أحدهم كتاب الله تعالى ولم يسمع في ذلك شيئا عن رسول الله ﷺ، وعلى فرض عدم السماع فهم أحد العرب الذين عرفوا اللغة دقها وجلها.."[3].

رابعا: التفسير بأقوال التابعين

تمهيد

اصطلحت الأمة على الفئة التي تلت الصحابة فئة التابعين، وذلك في إطار الاستفادة المطلقة من الفترة النبوية عن كل الجهات: أولا بالاهتمام بالسنة النبوية، ثم بفترة الصحابة باعتبار الاتصال المباشر بالمرحلة الأولى، ثم بالتابعين باعتبار اتصالهم المباشر بالصحابة، ومن خلالهم الاتصال غير المباشر بالفترة النبوية التي هي الأصل، وقد يمتد الأمر إلى تابعي التابعين لنفس الاعتبار.

وتزامن مع هذا الاهتمام استحضار الفروق الجوهرية بين كل المراحل، بحيث تحفظ لكا مرحلة مميزاتها، وإن كانت تتقاطع مع المراحل الأخرى، وتبقى المرحلة النبوية بخصائصها الفريدة متميزة على الإطلاق فهي المركز.

---

[1] جامع البيان (شاكر)(80/1)، مقدمة في أصول التفسير، ص35.

[2] مختصر الصواعق المرسلة، ص458، منهج أهل السنة، ص67.

[3] فتح البيان، (14/1).

وهنا ننبه لملاحظة منهجية مهمة وهي أن التراث التفسيري للصحابة أة للتابعين لم يتميز ولم يتحدد بالشكل الكافي، وإن كان الأمر يصدق أيضا على التفسير النبوي كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وعليه فهناك خطوة منهجية سابقة وهي إخراج التراث التفسيري للأمة بشكل عام والمراحل الأولى خاصة، والإخراج المطلوب هو الإخراج العلمي بكل ما تعنيه الكلمة، ومن الأولويات في هذا الإطار صحة السند ما دمنا نتعامل مع مجموعة من الآثار.

ولا يختلف مقام تفسير الصحابة عن مقام تفسير التابعين بأكثر من أن الأول أقوى والثاني ملحق به، ويستمد قوته من قوة الأول، كما أن كليهما يستمدان قوتهما من التفسير النبوي.

1) حجية التفسير بأقوال التابعين

من مصادر التفسير المعتبرة إذن عند العلماء تفسير التابعين، وهم الجيل الذي ورث علم صحابة رسول الله ﷺ، فقامت مدارس للتفسير في أهم المراكز العلمية، وكل مدرسة منها كان الصحابة هم محورها، فحولهم قامت ومن علمهم الغزير انطلقت.

وهكذا قامت مدرسة التفسير بمكة على عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فكان يجلس لأصحابه من التابعين يفسر لهم كتاب الله تعالى... وقد اشتهر من تلاميذ ابن عباس بمكة سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاوس ابن كيسان اليماني وعطاء بن أبي رباح[1].وقامت مدرسة للتفسير بالمدينة على أبي بن كعب رضي الله عنه "الذي يعتبر بحق أشهر من تتلمذ له مفسروا التابعين بالمدينة... واشتهر من بينهم ثلاثة هم زيد بن أسلم وأبو العالية ومحمد بن كعب القرظي[2].

وقامت مدرسة التفسير بالعراق على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وكان هناك غيره من الصحابة أخذ عنهم أهل العراق التفسير، غير أن عبد الله بن مسعود كان يعتبر الأستاذ الأول لهذه المدرسة...وقد عرف بالتفسير من أهل العراق كثير من التابعين اشتهر من بينهم علقمة بن قيس ومسروق والأسود بن يزيد ومرة الهمذاني وعامر الشعبي والحسن البصري

[1] التفسير والمفسرون (119/1).
[2] التفسير والمفسرون (119/1)

وقتادة بن دعامة السدوسي[1].وإذا كان الخلاف قد نشأ حول اعتماد تفسير الصحابة مصدرا للتفسير، فلا شك في وقوعه بالنسبة للتفسير بأقوال التابعين من باب أولى، نلمس هذا الأمر بيسر عند ابن تيمية في مقدمته عند حديثه عن طرق التفسير، فهو لا يشير إلى أي اختلاف في كون القرآن مصدرا للتفسير، وكذلك الشأن بالنسبة للسنة، وقريب منه تفسير الصحابة، ويشير إلى هذه المصادر الثلاثة دون ذكر اعتراض معترض فيقول: "إن أصح الطرق أن يفسر القرآن بالقرآن... فإن أعياك ذلك فعليك بالنسبة"[2]، وهذا بلا خلاف، ثم يشير إلى تفسير الصحابة بقوله: "إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعت في ذلك إلى أقوال الصحابة... لا سيما علماؤهم"[3]، أما حين حديثه عن التابعين فلم يزد على أن يذكر أن كثيرا من الأئمة رجعوا إلى أقوالهم، بما يفيد أنه اختيار طائفة، وهذا لا يلزم غيرهم، قال: "إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين"[4].

ومعلوم أن قيمة تفسير التابعين إنما كانت من جهة أنهم تابعون، فكونهم عاصروا من عاصر التنزيل لا شك أنهم تلقوا عن الصحابة علما غزيرا، ولا شك أنه بسبب القرب من العهد النبوي بكل ما فيه من صفاء كأي اقتراب من المنبع، كل ذلك يرجح كفة اعتبار المنزلة الخاصة للتابعين، ولمثل هذا يشير صاحب المباني بعد حديثه عن منزلة تفسير الصحابة حين يجعل ذلك لمن بعدهم فيقول: "ثم الذين بعدهم ممن كانوا من علم تلك الاحوال بمنزلة من شاهدها لقرب عهدهم بها واستفاضة أخبارها لديهم وهم التابعون"[5].

ويختلف ابن القيم الجوزية مع ابن تيمية في حجية أقوال التابعين في التفسير فهو:"لا يرى وجوب الاحتجاج بقول التابعي، وإنما تساق أقوالهم على سبيل الاستئناس والاستيضاح والشرح"[6].

---

[1] نفسه (121/1).
[2] مقدمة في أصول التفسير، ص93.
[3] نفسه، ص95.
[4] نفسه، ص102.
[5] مقدمة المباني، ص195.
[6] منهج أهل السنة، ص183.

وإذا كان ابن تيمية قيد الاحتجاج بأقوالهم في حال الاتفاق فابن القيم "يتساءل في ثقة واطمئنان: كيف نقطع باتفاقهم واجتماعهم؟ وكيف نضمن بعدم المخالفة منهم وهم كثيرون جدا وانتشروا في الأمصار انتشارا لا ينضبط؟"[1]، وهذا القول من ابن القيم هو الذي اختاره صبري المتولي؛ إذ قال: "نرى-إنصافا- أن الحق هنا مع ابن القيم"[2].

وممن تعرض لحجية تفسير التابعين الزركشي في البرهان، ويظهر أنه يمسل إلى اعتبار أقوال التابعين وإن كان بشروط، قال: "وفي الرجوع إلى قول التابعي روايتان عن أحمد، واختار ابن عقيل المنع وحكوه عن شعبة"[3]، ثم في شبه رد عليه قال:"لكن عمل المفسرين على خلافه، وقد حكوا في كتبهن أقوالهم..."[4]، بمعنى أن هذا الرفض خالفه العمل ثمـ يبرر ضرورة اعتبار أقوالهم بكونهم تلقوها عن الصحابة في أغلبها، قال: "وغالب أقوالهم تلقوها من الصحابة"[5].

وإذا كانت حجة تفسير الصحابة إنما ترجع لكونهم تلقوا عن رسول الله ﷺ، فإن التابعين باعتبارهم الجيل الوارث لعلم الصحابة، من التفريط عدم اعتبار هذه المنزلة المتميزة لهم.

فحين يبلغنا قول مجاهد" عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها، فيم نزلت؟ وكيف كانت"؟[6].

ويرويه عنه أبو مليكة قائلا: "رأيت مجاهدا سأل عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، قال ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله"[7]، فمثل هذه الروايات تعطي قيمة خاصة لتفسير مجاهد، سواء حين يروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أو حين ينفرد بالقول، فلا بد أن يورثه تعليم ابن عباس له علما يساهم به ويشارك به، ولذلك قال سفيان الثوري: "إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به"[8]. ولا شك أن ما قيل عن مجاهد يقال عن كثير من التابعين، فاعتبار هذا العصر، وهذه المرحلة، وهذا الجيل، اعتبارا لمادة علمية غزيرة

---

[1] نفسه.
[2] نفسه.
[3] البرهان في علوم القرآن (158/2).
[4] نفسه(158/2).
[5] البرهان في علوم القرآن (158/2).
[6] جامع البيان (40/1)، مقدمة في أصول التفسير، ص102.
[7] المرجع السابق،ص103.
[8] نفسه.

وقيمة، وهذا الذي كان موقف أهل العلم كما ينقله ابن تيمية: "فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر فإنه آية في التفسير".[1]

[1] مقدمة في أصول التفسير،ص102.

خامسا:

نماذج تطبيقية للهدى المنهاجي من خلال بعض السور (العلق-القلم)

سورة العلق[1]

(بسم الله الرحمان الرحيم)

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ۝١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ۝١٩﴾

المفروض أن يكون كل قارئ لهذه النظرات قد رجع إلى مختلف التفاسير ليتعرف على معاني السورة حسب الطاقة لأن الحديث عن الهدى المنهاجي الذي يستفاد من هذه السور في زمننا هذا، وفي ظرفنا هذا.

سورة العلق من أول ما نزل ومما يمكن استفادته منها ما يلي:

<u>أولا: أول الطريق القراءة باسم ربنا</u>: فبلا قراءة لا علم، وبغير اسم ربنا لا قدرة ولا انتفاع أي إن الإبصار إنما يكون بعين الوحي وميزانه: وذلك معناه أن التفوق في العلم بلغة اليوم هو الخيار الاستراتيجي والطريق المعبد للإمامة الحضارية، فالإصلاح يبدأ من الأفكار قبل الأعمال، ومن الباطن قبل الظاهر، ومن الأصل قبل الفرع، ومن الفرد قبل الجماعة.

كما أن من معاني ذلك أيضا التبرؤ من الحول والتوكل على الله الذي ليس إلا منه الحول وهو رأس الحول- ومعنى هذا الكلام: أي إذا اردت أنا الفرد أن أكون مؤمنا حقا من أين أبدأ؟ هل أبدأ بأن ألبس جلبابا أو أضع حزاما أو عمامة أو أي شيء آخر لا، البدء أولا يكون بالعلم والشرعي منه على وجه الخصوص لأنه لا يحل لامرئ مسلم أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه. وهذه النقطة هي التي بدأ بها الله عز وجل بعبده محمد ﷺ حين أراد

[1] سورة العلق، مكية وآياتها 20.

منه أن يكون معلم البشرية، لقد أراد منه ألا يعلم حتى يتعلم هو، وحتى يعمل بما يعلم، أي حتى يتحقق مما يعلم، ويتخلق بما يعلم. فالبدء من العلم هو أول الطريق للرجل والمرأة على السواء، فيه يبدأ التحول فلا ينبغي أن نعكس الأولويات، أو أن نأتي إلى التفاصيل، فهذه نقطة مركزية أساسية في السير، اختارها الله تعالى لنبيه محمد ﷺ، ولذلك حارب الكفار والمحتلون العلم الديني ونهجوا سياسة تجفيف منابعه وما يزالون، واختارها الرسول ﷺ لأصحابه واختارها الصحابة رضوان الله عليهم لأبنائهم وأحفادهم، فلا ينبغي أن يطرأ على هذه الحقيقة أي اختلال، سواء بالنسبة للسير الفردي، أو السير الجماعي، لأن الخطاب القرآني وإن كان متجها إلى فرد واحد هو محمد ﷺ فالمقصود به أيضا الجماعة والأمة والدولة.

ومن مستلزمات ما ذكر أن أكبر حظ في ميزانية الدولة ينبغي أن يتجه إلى العلم، وإلى البحث العلمي لأنه به يكون التفوق والإمامة الحضارية والشهادة على الناس، كما أن الانطلاق من العلم من معانيه أيضا أن الإصلاح يبدأ من الفكر وليس من السلوك –السلوك تابع لما في القلب، لما في العقل، سمه ما شئت، المهم البدء من الداخل الذي يسميه بعضهم: التصور –فنوع الأفكار التي عندك في الداخل هي التي ينبغي أن يطرأ عليها التصحيح، فالعمل تابع للعلم ولا عكس، لأن [قرأ] لا تخاطب الأنف، أو الأذن، أو الرجل، ولكنها تخاطب القلب ونظام الأولويات يحكمه هذا المبدأ –الباطن قبل الظاهر والأصل قبل الفرد.

ومن مستلزمات "اقرأ باسم ربك": التبرؤ من كل حول وطول، لأن الأمر بالقراءة ليس أمرا تكليفيا بما لا يستطاع، فالرسول ﷺ لم يكن متعلما القراءة حتى يقرأ شيئا مكتوبا، ولكنه أمر تكويني، أي "صر قارئا" بحول الله وقوته، لتكون قراءتك باسم ربك- وأنت أمي- من أعظم المعجزات الدالة على نبوؤتك، ويكون لإقراؤك لأمتك وتزكيتها بالعلم الرباني لتصبح خير أمة من أعظم معجزات الوحي الصانع لأمة فريدة في التاريخ الحضاري. وهذا التعبير [اقرأ باسم ربك] يراد منه أمران كبيران لا بد أن نستصحبهما باستمرار، وهما:

الاستئذان والاستمداد للحول والقوة، وهذا معناه أني لا أمارس فعل القراءة إلا بعد استئذان الله تعالى، وإذا كان من المعلوم تاريخيا أن الأحكام كانت تصدر باسم الكاهن، أو

الساخر أو ما أشبه، فإن الواقع أيضا يعرف أحكاما تصدر باسم مجلس الثورة أو باسم رئيس الجمهورية أو باسم جلالة الملك أو ما أشبه، فالتعبير إذن هنا [باسم ربك] يراد منه تصحيح هذا.

وهذه النقطة مركزية، وقد علمها الله تعالى للمسلمين في حنين ولقنهم درسا بليغا لأن التفات القلب إلى غير الله يجلب الهزيمة، فهذا الرسول لم يكن قارئا ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت:48) ولكنه صار قارئا بحول الله وقوته.

<u>ثانيا:</u> أول العلم بربنا، خالقا ومعلما لنا ثم العلم بالإنسان مخلوقا ومعلما من ربنا:

وذلك مما يستلزم: ذكر الله تعالى طريقا للعلم به والخشية له وعلى رأس تلك النعم نعمتا الخلق والتعليم –ثم تركيز الاهتمام على الإنسان لتمييزه موقعا وتكريما وتعليما- وأن التعليم أكبر مظهر للتكريم. فالعلم بالله تعالى هو رأس العلم وأصله وقاعدته وهو الحقيقة الضخمة الصحيحة الصريحة لأن الله عز وجل في الآيات الخمس الأولى لم يتحدث عن شيء، غير الله سبحانه ، قال: [اقرأ باسم ربك] بمجرد أن نذكر [الرب] ليس بعدها إلا التعريف بهذا الرب، الذي خلق الانسان من علق، هذا الرب الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

فالعلم بالله الرب أول، وبالتحديد العلم بربنا الذي لم يرد في القرآن إلا مضافا [ربنا] [ربكم] [رب العالمين] للإشعار بعظمة الإنعام الإلهي على كل شيء في الوجود وبالأخص نعمتي الخلق والتعليم بالنسبة للإنسان، الأولى فيها وجوده، والثاني فيها سر قدراته كلها، علمه بالقلم وبغير القلم. ولكنه تعالى أبرز أداة القلم، لأنه كان وما يزال سبب ما اكتسبه الإنسان من علوم ومعارف على مر العصور.

فداخل إطار العلم الشرعي يأتي العلم بالله جل جلاله، وإذاك تبتدئ العبدية، وإذاك تبتدئ العبودية، وإذاك تبتدئ العبادة على وجهها الصحيح، وإذاك يبتدئ الوجود الإيماني الحقيقي للعبد.

ويأتي بعد ذلك تركيز الاهتمام على الإنسان لتميزه موقعا وتكريما وتعليما، لأن الإنسان هو الأساس في النجاح أو في الفشل في أي خطة أو عمل أو في أي شيء، وبإصلاح الإنسان اشتغل الرسل-عليهم السلام-، لم يشغلوا بتأليف الكتب، وإنما اشتغلوا بتأليف الرجال، وبالتحويل اللازم لبني آدم من الفساد إلى الصلاح- هذا محل التحدي عمليا، فلذلك الإنسان هو المحور، في أي عملية إصلاح، في أي عملية يراد القيام بها ينبغي التركيز أولا على العنصر البشري فيها- وهل تميز آدم وبنوه إلا بهذه النقطة؟ نقطة التعليم الذي علمه الله عز وجل.

<u>ثالثا:</u> الطغيان أبرز أدواء الإنسان، وفي توهم الشعور بالاستغناء سر الداء، وفي الاستيقان بالرجوع إلى ربنا سر الدواء: وذلك مما يستلزم:

أولا: ملازمة الشعور بالافتقار إلى الله تعالى.

ثانيا: ملازمة ذكر الموت والآخرة والرجوع إلى الله تعالى.

<u>ثالثا:</u> ملازمة الوقوف عند حدود الله تعالى وعدم التعدي.

فمن قوله تعالى: [كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى] إلى قوله عز وجل :[[إن إلى ربك الرجعى] يستفاد منه حقيقة: أن الطغيان أبرز أدواء الإنسان وأن توهم الشعور بالاستغناء،هو سر الداء وهو المريض، وسببه والطغيان هو تجاوز الحد، والله تعالى ضبط الأمور وحد الحدود ثم قال:[تلك حدود الله فلا تعتدوها] (البقرة:227) وقال أيضا: [فلا تقربوها](البقرة:186) والإنسان هوايته الطغيان، أي تجاوز الحدود بالنسبة للآخرين بالدرجة الأولى، وبالنسبة للنفس. والإنسان يستحيل عليه الاستغناء، وهذا معناه أن الأمر مجرد توهم وتخيل لأن لكل مفتقر، فالقرآن في غاية الدقة، بمعنى أن الاستغناء مستحيل، إنما يبقى توهم الاستغناء، هذا التوهم هو سر البلاء، أما سر الشفاء فهو هذا الدواء: [إن إلى ربك الرجعى] والتي يجب أن تصير في القلب إلى الحد الذي يحدث الزلزال في الكيان، وهو العلم اليقيني الذي يحدث السلوك الحقيقي لذلك قال الرسول ﷺ "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن" (رواه الإمام البخاري) المشكلة أننا نتعامل مع الألفاظ تعاملا عاديا باردا لا يحدث أثرا ولا ينتج ثمرا ولا انتهاء عن الطغيان، ولذلك قال عز وجل لنبيه ﷺ:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(هود:112)

لكي لا يكون طغيان أبدا ﴿وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ (طه: 79)

والاستغناء عن الله أخطر الاستغناءت وراس البلاءات وهو يحدث للكفار الخلص الذين شرحت صدورهم للكفر ويتبع الكفار من يستغني بجاهه أو ماله أو عمله، أو شيء يتوهم أنه غير محتاج للآخرين.

ولذلك لا بد من ملازمة الشعور بالافتقار إلى الله تعالى وذكر الرجوع إليه والمصير إليه والوقوف عندما حد ونظم وضبط.

رابعا: الله تعالى يتولى الدفاع بنفسه عن عباده إذا استجمع ثلاثة شروط:

أولها: إذا صلى صلاة حقيقية وحقق اتصالا مباشرا فهي أول تطبيق لعلم الخشية والمعرفة بالله –لم التضرع لله والاعتماد عليه- ولذلك كانت عمود الدين ولهذا نحن نحتاج إلى أن نصلي من جديد، فمنها ينبغي أن يبدأ الطريق من جديد.

ثانيها: أن يكون مستقيما على أمر الله تعالى: [أرايت إن كان على الهدى].

ثالثها: أن يكون داعيا غيره إلى الصلاح: [أو امر بالتقوى] فحين يكون العبد مصليا مستقيما على الهدى وداعيا، يتولاه الله تعالى ويرعاه ويحميه ويدافع عنه سبحانه بنفسه.

خامسا: دفاع الله تعالى عن عبده يكون بأمور:

- فضح لطغيان الطاغي بدون ذكر اسمه، لأن القرآن صاغه الله تعالى بصورة نموذجية لا يحدها زمان ولا مكان، حيث هجم هذا الطاغي على عبد صالح بدون مبرر أو ذنب اقترفه العبد الصالح.
- بيان اتصاف عبده بكل ما يقتضي الإحسان إليه بدل الإساءة إليه.
- تخويف الطاغي عليه برؤية الله تعالى لا محالة.

وفي الآيات تعجيب من شناعة فعل الطاغية الذي هجم على العبد الصالح حين تلبسه بفعل الصلاة، الذي هو أشرف فعل وأزكى فعل، فبدل الإحسان إليه وإكرامه يسيء الطاغية إليه."وما نقموا منهم..." هذه مرحلة. فالمرحلة الثانية: إن تمادى الطاغية في غيه ولم يرتدع تأتي مراحل من التهديد بالأخذ المباشر [كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية] والسفع هو الضرب بالنار حتى يحدث سوادا، لأن الناصية هي مكمن التكبر والتجبر والطغيان، وهي

في الأصل ينبغي أن تكون مكمن الخضوع والسجود والطاعة. ثم يأتي الهجوم على الطاغية بالكلام والقول المباشر، والقذف المباشر، والسب المباشر، والهجوم المباشر "ناصية كاذبة خاطئة" في المقابل تلك الناصية العابدة الساجدة، وأخيرا يأتي التحدي "فليدع ناديه" فليدع جماعته وأتباعه، وهنا تتم دعوة الزبانية –خزنة جهنم- للإسراع بالطاغية إلى مصيره، وهنا يتدخل الإعلام لصالح أهل الإيمان.

سادسا: واجب عبد الله تجاه أي طاغية ينهاه عن فعل ما أمر به الله عز وجل هو: عدم الطاعة له والسجود لله تعالى الاقتراب منه عز وجل، وذلك أن عبد الله إذا ووجه بالمشاكل وبالطغيان ووقع الهجوم عليه، وبدأ يمنع من الصلاة، ويمنع من السير على هدى الله، ويضيق عليه، واجب عبد الله أمام هذه الحالات شيء واحد هو الفرار إلى الله تعالى بكثرة الطاعات، وكثرة الصلوات والتضرعات، وكثرة الصبر والثبات والعصيان لأوامر الطغاة [كلا لا تطعه واسجد واقترب]، فالرد في هذه المرحلة ممنوع لأن الإنسان إذا لم يرد أولا قضيته تربح أكثر والحق يتبين أكثر. ويزداد الأنصار أكثر عمليا، ثم هو يعظم إيمانه أكثر، أما عندما يرد كل ذلك ينقص، وأحيانا يلتبس الأمر تماما ويختلط ولا يعرف الناس الحق من الباطل، -فلا بد من الفتن بأشكال مختلفة والموقف منها هو الصبر على الأذى حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود في المواقف والتصرفات وتستبين سبل المجرمين والصورة المظلمة للطغاة، وهذا لا يكون إلا بعد مرحلة من الصبر على البلاء- فحين يكون ظرف كهذا الظرف يكون وصف كهذا الوصف وتكون وصفة كهذه الوصفة، وهذا هو المقصود بالهدى المنهاجي.

سورة القلم [1]

(بسم الله الرحمان الرحيم)

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ۝١٦ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ۝١٨ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ۝٢٢ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ۝٢٣ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ۝٢٤ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ۝٢٥ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ۝٢٧ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۘ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٣٣ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٣٤ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۝٣٦ أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨ أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ ۝٣٩ سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ۝٤١ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ۝٤٣ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ۝٤٥ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ۝٤٦ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ۝٤٧ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝٥١﴾ ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾

[1] سورة القلم، مكية وآياتها 52.

مما يمكن استفادته من هذه السورة ما يلي:

1- من سنن الدعوات اتهام الرأس بما يصرف الناس عن دعوته في البدايات، وأفضل سلاح للرد: الثبات، والتخلق بأحسن الأخلاق.

في سورة العلق كان الدفاع عن رسول الله ﷺ في وجه طاغية بعينه، أما هنا فالسورة متصدية للدفاع عن رسول الله اتجاه جمع من الطغاة، فالذي يطغى في السورة من البداية حتى النهاية هو التعبير بصيغة الجمع فيمن يواجه رسول الله.

أما النقطة الأولى فهي: أنه في النظام العام لسير الدعوات دائما يكون التوجه إلى الرأس، وهذا الذي يجلي: لم يهتم نماذج من الطغاة في هذا العصر بالنشطاء؟ لم يهتمون بالرؤوس؟ لأن قطع الرأس يقضي على الدعوة من جذورها، لكن التوجيه الذي يجب التزامه أمام هذه الظروف، هو الثبات على الحق أولا، ثم بعد ذلك التخلق بأحسن الأخلاق.

ولذلك كان الخلق الحسن بالنسبة للداعي إلى الله عز وجل هو السلاح الحقيقي الذي يواجه كل هجوم، وكل تهمة وكل الافتراءات والأكاذيب والترهات، والله عز وجل يختار من عباده –وبخاصة من الأنبياء والرسل- من البداية ذوي الخلق الحسن المؤهلين لحمل أمانة الدعوة والدين.

فاختيار النماذج الرفيعة خلقا للدعوة هو من أول الهدى الذي يواجهنا في السورة؛ فالرسول ﷺ كان على خلق حسن عظيم منذ بداية الدعوة، لأن النماذج المقصدية للدعوة تكون في الوسط الذي تعيش فيه كالشامة من قبل أن تحمل أمانة الدين، ثم إن المفسرين- عادة- يتوجهون في فهم هذه الآية إلى الحديث المشهور: سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله فقالت: "كان خلقه القرآن"، هذا الحديث ورد متأخرا، وهذه الآية نزلت قبل أن ينزل القرآن بكامله، بل نزلت قبل أن ينزل أغلبه.

واستعمل لفظة [على] للدلالة على التمكن في الخلق كما استعملها في العلق للدلالة على التمكن من الهدى وعلى البصيرة والدعوة.

وكذلك ينبغي على الدعاة إلى الله أن يستمروا ويثبتوا ويتحققوا ويتخلقوا.

2-الحل المستقبل والله تعالى الأعلم بالأهدى والأضل: [فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين] فالمستقبل يتكفل بالحل والزمن جزء من العلاج، فستبصر ويبصرون، متى؟ يوم القيامة؟! الكلام أساسا في هذه الدنيا، بأيكم ستكون الفتنة للناس؟ من هو الذي يفتن الناس عمليا؟ من؟ سيقع هذا الأمر في الدنيا، سيتجلى للناس كما يقول الله تعالى في آية أخرى [ولتستبين سبيل المجرمين] سيتضح الأمر بجلاء، سيبصر الناس جميعا، الذين يكذبون بالدين، والذين يعارضون الدعوة إلى الله عز وجل، إذا ثبت رجالها، إذا صبر أهلها، سيأتي الوقت الذي يميز الله تعالى فيه الحق من الباطل، ويتميز الخبيث من الطيب، ويتضح كل شيء، آنذاك [فستبصر ويبصرون] لست وحدك تبصر، ولكن: فستبصر أنت ، وسيبصرون هم كذلك [بأيكم المفتون] بأيكم تكون الفتنة للناس؟!من هو الذي يفتن الناس عمليا؟ من؟ فخلاصة هذه النقطة: هي أن المستقبل فيه الحل، فيجب الثبات والانتظار، الزمن كما قيل جزء من العلاج، فقط ينبغي الصبر والاستمرار.

3-لا طاعة لمكذب بالدين، ولا قبول لمساومته، ولا طاعة لمن كان ذا خلق لئيم أثيم: [فلا تطع المكذبين]، في السورة السابقة (العلق) كان الختم [كلا لا تطعه] وها هنا [فلا تطع المكذبين] [ولا تطع كل حلاف مهين] وهذا معناه قيام الدعوة على المبادئ الثابتة الراسخة التي لا تقبل المساومة، فلا مجال للمساومة ولا للمهادنة ولا للمقايضة، [قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين] ما جاء من عند الله تعالى يجب العض عليه، والتمسك به، والقبض عليه، وإن كان محرقا كالجمر، وإن كان مؤلما، وإن كان صعبا، وإن كان شاقا، وهذه نقطة واضحة في القرآن وفي السيرة التي هي صدى القرآن، فالمؤمن كما يقال: صاحب مبدأ، والداعية مبدئي أيضا، فهناك أشياء ثابتة لا مفاوضة فيها ولا مساومة عليها.

نعم للحوار وعلى الرحب والسعة، لكن لا تنازل أثناء الحوار عن أي مبدأ من مبادئ الدين الأساسية القطعية الصحيحة المفروغ منها، لا تنازل عن شيء من ذلك، لأن القاعدة الضخمة الكلية في هذا الدين هي أن (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) ولذلك كان من أوائل ما رتب وسطر ليستقر منذ البداية [فلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم].

4- من أسباب التكذيب القوة المالية والبشرية: لماذا يكذب المكذبون؟ القوة المالية والعسكرية-بتعبير اليوم- قال الله عز وجل: { إن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين} أي خرقات الناس السابقين.

سبق في العلق {إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى} فرعون من هاهنا أتي فراعنة العصر من هاهنا أتوا، الجميع في كل زمان وفي كل مكان يطغى بسبب القوة الاقتصادية والعسكرية العمياء. فرعون قال: "أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي"[1] وبوش قال:" أليس لي ملك الأرض وهذه الشعوب تبكي من تحتي".

5- نعمة الدين – وهي أعظم النعم- بلاء؛ فمن كفرها فقد ظلم وطغى وعرض نفسه للعذاب الأصغر في الدنيا والأكبر في الآخرة: وهذه هي خلاصة هذا القسم الخاص بأصحاب الجنة، لماذا جيء بهذه الآية هنا{إنا بلوناهم} أي بلونا هؤلاء المكذبين من قريش وغيرها كما بلونا أصحاب الجنة، فالإشكال دائما هو كفران نعمة الوحي، ونعمة الإيمان، ونعمة القرآن –بالتحديد- فالمراد بلفظة النعمة في البدايات، إنما هو القرآن الكريم، {وأما بنعمة ربك فحدث} {ما أنت بنعمة ربك بمجنون}{وأتممت عليكم نعمتي} (المائدة:3).

وهذه النعمة بلاء من الله عز وجل، ابتلى قريشا بنعمة القرآن ولكنهم كفروا.

6-المساكين محميون من قبل الله عز وجل، فمن حرمهم من حقهم فيما عنده حرمه الله من كل ما عنده: (اتقوا مجانين الضعفاء) –وهي دعواتهم- إن حقوق المساكين هي

[1] سورة الزخرف، الآية51.

حقوق الله {كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين} والمصائب التي نعيشها من أسبابها ضياع حقوق المساكين بانهدام ركن الزكاة على صعيد الفرد والمجتمع، وعلى مستوى الجمع والصرف.

7- التسبيح والتوبة النصوح هما طرق النجاة عند تيقن الغرق: {قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون} فأول التسبيح ومعناه: تنزيه الله تعالى عن الخطأ، تنزيه الله عن النقص، ثم التوبة النصوح، {عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها} {فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون} (الصافات:144.

8- الإسلام سلام والكفر إجرام، ولا مساواة بين المسلمين والمجرمين في ميزان الله تعالى لا في الدنيا وال في الآخرة: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(الجاثية:21)

فمصطلح المجرمين في غاية الأهمية –مقابلة المسلمين بالمجرمين يصحح أكبر اعوجاج في الفهم اليوم- المسلم لا يكون مجرما بحال، المسلم مشتق من السلم: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"(رواه الإمام البخاري) فالكفر إجرام لأنه يفسد كل شيء، فلا إحسان في الصنع إلا بميزان الله، إنهم يفسدون بإحسان وإتقان، نعمة العلم يفسدون بها، نعمة القوة يفسدون بها، لماذا هم خير منا؟! لأننا نحن لا نمثل الإسلام، ﴿وَلَن يَّجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُومِنِينَ سَبِيلًا ﴾ (النساء:141) والآن لهم علينا السبيل.

9- ظنون المجرمين بربهم سراب سنكتشف بعد فوات الأوان يوم الحساب: { يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون}.

10- لا داعي لبخع النفس على المكذبين فالله يتولاهم بكيده المتين: {فدرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم}.

11- الدعاة هداة لا جباة ولذلك لا يجوز طلب أجر من مدعو قبل إسلامه:{أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون}.

12- من اختاره الله تعالى لهداية خلقه فلا يجوز له مغادرة موقعه ويجب عليه الصبر لحكم ربه: فلا أحد كان بجهده في الخير إنما باختيار الله له{هو اجتباكم}{فاصبر لحكم ربك}، والتوجيه في قصة سيدنا يونس عليه السلام فلامه على مغادرة موقع الدعوة في قومه.

13- لا تضق أيها الداعي إلى الله بنظرة الكفار إليك، ولا تضق بتهمتهم إليك، واعلم أن رسالتك عالمية: { وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون **أنه لمجنون}**، عادة الإنسان أن يصيبه الضيق والضجر من نظرة المحادين الصادين المعارضين المعاندين والمقصود بالنظرة: الموقف كما يقولون اليوم وذلك عندما يشهرون، ويكتبون، ويكيدون ويتآمرون، وينظرون شررا، ويقولون إفكا وبهتانا –كل هذا لا يلتفت إليه ولا يضيق به –لا تضق بالنظرة مهما كانت النظرة شديدة الحنق والحقد، فهم من شدة ذلك يكادون يسقطون رسول الله ﷺ بأبصارهم على الأرض.